(هذا نَصِيبي)

وزَعم سَرِيٌّ بنُ مُكرَّمٍ، وهوُ ابن أخِي موسَى بنِ جَناح، قال: كان موسى يأمُرنَا ألاَّ نأكلَ ما دامَ أحدٌ مِنَّا مشغولًا بشربِ الماءِ وطلبِه. فلما رآنا لا نُطاوِعُه دعَا ليلةً بالماءِ، ثم خطَّ بإصبعِهِ خطًّا في أُرزَّةٍ كانتْ بينَ أيدينا، فقالَ : هذا نصيبِي، لا تَعَرَّضوا لهُ حتَّى أنتفِعَ بشربِ الماءِ !

وأحاديثُه في صَدْرِ هذَا الكتابِ. وهذَا منهَا .

(يَقْرأُ القرآن علَى العشَاءِ)

وقالَ المكِّيُّ لبعضِ منْ كانَ يتَعَشَّى ويُفطرُ عندَ الباسِيانِيِّ: ويْحَكُمْ! كيفَ تُسيغُون طعامَه، وأنتمُ تسمعونَه يقولُ : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾[1] ثم تَرَوْنهُ لا يَقْرَؤُها إلاَّ وأنتمُ علَى العَشاءِ، ولا يقرأُ غيرَ هذهِ الآية. أنتمُ واللهِ ضدُّ الذي قالَ :

أَلْبانُ إبْلٍ تَعِلَّةَ بنِ مُساوِرٍ ... ما دامَ يملِكُهَا عليَّ حَرَامُ
وطعامُ عِمْرانَ بنِ أوْفَى مثلُه ... ما دامَ يَسلُكُ في البطونِ طعامُ
إنَّ الذينَ يسوغُ في أعناقِهِمْ ... زادٌ يُمَنُّ عليهِمُ لَلِئامُ[2]

قال : فمتَى تعجَبُ أعجَبَ مِنْ خمسينَ رجلًا منَ العربِ، فيهم أَبُو رافعٍ الكِلابيُّ، وهُو شاعرٌ نَدِيٌّ ، يُفْطِرونَ عندَ أبِي عثمانَ الأعورِ. فإفطارِي منْ طعامِ نَصْرانيٍّ أشدُّ من إفطارِي من طعامِ مُسلمٍ يقرأ القرآن ويقولُ الحقَّ .

(أكلَ الشيخُ ولمْ آكُلْ)

وحدَّثني أبو المنْجُوفِ السَّدُوسِيُّ قال : كنتُ معَ أَبِي ومعنَا شيخٌ منْ مَوَالِي الحيِّ. فمررنَا بناطُورٍ[3] على نهرِ الأُبُلَّةِ، ونحنُ تَعِبُونَ. فجلسنَا إليهِ. فلمْ يلبَثْ أنْ جاءنَا بِطَبَقٍ عليهِ رُطَبُ سُكَّرٍ وجَيْسُوان[4] أسْوَدُ، فوضعَه بينَ أيدينَا. فأكلَ الشيخُ الذي كانَ معنَا. فلما رأيتُ أبِي لا يأكلُ لم آكلْ ، وبِي إلَى ذلكَ حاجةٌ. فأقبلَ الناطُورُ على أبِي فقالَ: لِمَ لا تأكُل؟ قال: واللهِ إنِّي لأَشتهِيه. ولكنْ لا أظنُّ صاحبَ الأرضِ أباحَ لكَ إطعامَ الناسِ منَ الغَرِيبِ. فلوْ جئتَنا بشيءٍ منَ السُّهْرِيزِ والبَرْنِيَ[5] لأكلنَا. فقالَ مولانَا، وهُو شيخٌ كبيرُ السنِّ: ولكنِّي أنا لم أنظرْ في شيءٍ منْ هذَا قطُّ .

---

(١) [الإنسان : ٩] .

(٢) لبعض الأعراب في البيان والتبيين [٣/٣٠٦] ، ولرجل من بني تميم في الكامل [١/٥٩] ، وفيهما « تعلة بن مسافر » بدلا من « تعلة ابن مساور » .

(٣) بناطور : برجل حارس للعنب والنخل .

(٤) جيسوان : نخل عظيمة الجذع .

(٥) السهريز والبرني : نوعان من التمر .

(دعاءٌ عليهِ)

قالَ المكِّيُّ : دخلَ إسماعيلُ بنُ غَزْوانَ إلى بعضِ المساجدِ يصلِّي. فوجدَ الصفَّ تامًّا، فلمْ يستطعْ أنْ يقومَ وحدَه. فجذبَ ثوبَ شيخٍ في الصفِّ ليتأخرَ فيقومَ معه. فلمّا تأخرَ الشيخُ ورأى الفُرَجَ، تقدمَ فقامَ في موضعِ الشيخِ، وتركَ الشيخَ قائمًا خلفَه ينظرُ في قفاه، ويدعُو اللهَ عليه.

(أريدُ أَنْ أُسخِّيكَ)

وكان ثُمَامَةُ يحتشِمُ[1] أنْ يقعدَ على خِوانه مَنْ لا يأنَسُ به. ومنْ رأيِهِ أنْ يأكلَ بعضُ غِلمانهِ معهُ. فحبسَ قاسمٌ التَّمَّارُ يومًا على غَدائِهِ بعضَ منْ يحتشمُهُ. فاحتملَ ذلكَ ثُمامةُ في نفسه. ثم عادَ بعدَ ذلكَ إلى مثلِها، ففعلَ ذلكَ مرارًا، حتى ضجَّ ثُمامةُ واستُفْرِغ صبرُهُ .

فأقبلَ عليه فقالَ : ما يدعوكُ إلى هذا؟ لو أردتُهم لكانَ لساني مطلقًا، وكان رسولي يؤدّي عنّي. فلِمَ تحبِسُ على طعامِي منْ لا آنسُ به؟ قال: إنَّما أريدُ أنْ أُسَخِّيَك، فأنفِيَ عنكَ التبخيلَ وسوءَ الظنِّ .

فلمَّا أنْ كانَ بعدَ ذلكَ، أرادَ بعضُهم الانصرافَ، قالَ له قاسمٌ: أينَ تريدُ؟ قالَ: قدْ تحرَّكَ بطني فأريدُ المنزلَ. قالَ: فلِمَ لا تتوضَّأُ ها هُنَا؟ فإنَّ الكنيفَ خالٍ نظيفٌ، والغلامَ فارغٌ نشيطٌ، وليسَ منْ أبي مَعْنٍ حِشْمةٌ، ومنزلُه منزلُ إخوانِهِ! فدخلَ الرجلُ فتوضأَ. فلمَّا كانَ بعدَ أيَّامٍ حبسَ آخرَ. فلمَّا كانَ بعد ذلك حبسَ آخرَ!

فاغتاظ ثُمَامَةُ ، وبلغَ في الغيظِ مَبْلَغًا لم يكنْ على مثلِهِ قطُّ. ثُم قالَ: هذَا يحبِسُهم على غَدائي ، لأَنْ يُسخِّيني بحبسِهم، علَى أنْ يخرَءوا عندِي! لِمَهْ؟ لأنَّ مَنْ لم يخرَأْ الناسُ عندَه فهُو بخيلٌ على الطعام! وقد سمِعتُهم يقولونَ: فلانٌ يكرهُ أن يُؤكل عندَه. ولم أسمع أحدًا قطُّ قال : فلانٌ يكرهُ أن يُخْرَأ عندَه!

وكانَ قاسمٌ شديدَ الأكلِ، شديدَ الخَبْطِ[2] قذِرَ المؤاكلةِ. وكانَ أسخَى الناسِ على طعامِ غيرِهِ، وأبخلَ الناسِ على طعامِ نفسِهِ. وكانَ يعمَلُ عملَ رجلٍ لم يسمعْ بالحِشْمةِ ولا بالتجمُّل قطُّ. فكانَ لا يرضَى بسوءِ أدبِهِ علَى طعامِ ثُمامةَ، حتَّى يجرَّ معه ابنَه إبراهيمَ. وكانَ بينَه وبينَ إبراهيمَ ابنِه في القَذَرِ ما بينَه وبينَ جميعِ العالَمين! فكانَا إذَا تقابلاَ على خِوانِ ثُمامةَ، لم يكنْ لأحدٍ على أيْمانِهما وشمائِلهما حظٌّ في الطيِّباتِ!

فأتوهُ يومًا بقصعَةٍ ضخمةٍ فيها ثَرِيدةٌ كهيئةِ الصوْمعةِ، مكلَّلةٌ بإكليلٍ من عُراقٍ، بأكثَرِ ما يكونُ

---

(١) يحتشم : يستحي وينقبض .

(٢) شديد الخبط : شديد الضرب . كأنه يضرب الطعام بيديه .

من العُراقِ. فأخذَ قاسمٌ الذي يستقبلُه، ثم أخذَ يَمْنةً، وأخذَ ما بين يَدَيْ منْ كانَ بينه وبين ثُمامةَ، حتى لم يدعْ إلاَّ عَرْقًا قدَّامَ ثُمامةَ. ثم مال على جانبِهِ الأيسرِ، فصنعَ مثلَ ذلك الصّنِيعِ. وعارضَه ابنُه وحاكَاه! فلمَّا نظر ثُمامةُ إلى الثريدةِ مكشوفة القِناعِ، مسلوبةً عاريةً، واللحمُ كلُّه بين يديهِ وبينَ يدي ابنه إلاَّ قطْعةً واحدةً بين يديه، تناولَها فوضعها قدَّامَ إبراهيمَ ابنِه، ولم يدفعْها. واحتَسَبَ بها في الكرامةِ والبِرّ. فقالَ قاسمٌ لمَّا فَرَغ منْ غَدَائِهِ: أمَا رأيتُم إكرامَ ثُمامةَ لابني؟ وكيفَ خصَّه ؟

فلمَّا حكى هذَا لِي، قلتُ : ويْلكَ! ما أظنُّ أنَّ في الأرضِ عرْقًا أشأمَ على عيالِكَ منه! هذَا أحرجَه الغيظُ، وهذا الغيظُ لا يتركُه حتَّى يتشفَّى منك. فإنْ قدَر لكَ على ذنبٍ فقدْ واللهِ هلكتَ. وإنْ لم يقدِر عليه أقْدَرَه لكَ الغيظُ. وأبوابُ التجنِّي كثيرةٌ. وليسَ أحدٌ إلاَّ وفيه ما إنْ شئتَ جعلتَهُ ذنبًا. فكيفَ وأنتَ ذُنوبٌ مِن قَرْنكَ إلَى قدمِكَ!

وكانَ ثُمامةُ يُفطِّرُ أيامَ كانَ في أصحابِ الفسَاطيطِ[1] ناسًا. فكثرُوا عليهِ، وأتوْه بالرِّقاعِ والشفاعاتِ. وفي حِشْوةِ المتكلمين[2] أخلاقٌ قبيحةٌ، وفيهِم على أهلِ الكلامِ وعلَى أربابِ الصناعاتِ مِحْنَةٌ عظيمةٌ .

فلمَّا رأَى ثُمامةُ ما قدْ دهمهُ، أقبلَ عليهم وهُم يتعشَّوْن فقالَ : إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يَسْتَحي مِنَ الحقِّ. كلُّكُم واجبُ الحقِّ. وَمَنْ لم تجئْنا شفاعتُه، فأكرِمُه كمنْ تقدَّمَتْ شفاعتُه. كما أنَّا لو استطعنَا أن نعمَّكم بالبِرّ، لم يكنْ بعضُكم أحقَّ بذلكَ منْ بعضٍ.

فكذلكَ أنتُم إذَا أعْجزنَا أو بدَا لنَا ، فليسَ بعضُكم أحقَّ بالحِرمانِ منْ بعضٍ، أو بالحَمْلِ عليهِ ، أو بالاعتذارِ إليهِ، منْ بعضٍ. ومتَى قرَّبتكُم، وفتحتُ بابِي لكُم، وباعدتُ منْ هُو أكثرُ منكم عددًا، وأغلقتُ بابِي دونَهم، لم يكنْ في إدخَالِي إيَّاكم عذرٌ لِي، ولا في منعِ الآخرينَ حجّةٌ . فانصرِفُوا ولا تعودُوا!

(مَعِيشَتِي)

قال أبو محمد العَروضِيُّ : وقعتْ بين قوم عَرْبدةٌ ، فقام المُغَنِّي يحجُز بينهم، وكان شيخًا مُعْيِلًا بخيلًا. فمسك رَجُلٌ بحَلْقه فعَصَره، فصاح: معيشتي! معيشتي! فتبسّم وتركه.

(عظَمةُ المغنِّي)

وحدَّثني ابنُ أبِي كَريمةَ قالَ : وهَبوا لِلكِنانيِّ المُغَنِّي خابيةً فارغةً. فلمَّا كانَ عندَ انصرافهِ وضعُوها على البابِ. ولم يكنْ عندُه كراءُ حَمَّالها. وأدركَه ما يُدركُ المُغَنِّينَ منَ التِّيهِ، فلم يَحْمِلْها.

(١) الفساطيط : مفردها فسطاط ، وهو بيت يتخذ من الشّعر والجماعة من الناس .

(٢) حشوة المتكلمين : عامتهم والمقصود بالكلام علم التوحيد الذي اختلط بالجدل والفلسفة وكان له في عصر الجاحظ أعلى مراتبه .

فكانَ يَرْكُلها[1] رَكْلةً، فَتَدَحْرَجُ وَتَدُورُ بمبلغ حَمِيَّة الرَّكْلةِ. ويقومُ من ناحيةٍ كيْ لا يراه إنسانٌ ويرَى ما يصنعُ . ثم يدنُو منها، ثم يركُلُها أخرى، فَتَدَحْرَجُ وتدورُ، ويقفُ منْ ناحيةٍ. فلم يَزل يفعلُ ذلكَ إلَى أنْ بلغَ بها المنزلَ!

(خوفٌ منْ أمير المؤمنين)

قالُوا : كانَ عبدُ النورِ كاتبُ إبراهيمَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ الحسن قدْ استخفَى بالبَصْرةِ في عبدِ القيس، منْ أميرِ المؤمنين أبي جعفرٍ وعمَّالِه. وكانَ في غُرْفةٍ قُدّامَها جَنَاح[2]. وكانَ لا يُطلِعُ رأسَه منهَا. فلمَّا سكنَ الطلبُ شيئًا، وثبتَ عندَه حسنُ جِوار القومِ، صارَ يجلسُ في الجَناحِ، يرضَى بأنْ سمعَ الصوتَ ولا يرى الشخصَ، لِمَ في ذلكَ منَ الأنسِ عندَ طولِ الوحشةِ. فلمَّا طالتْ به الأيَّامُ ، ومرَّتْ أيّامُ السلامةِ، جَعَلَ في الجَنَاحِ خَرْقًا بقدرِ عينهِ. فلمَّا طالتِ الأيَّامُ، صارَ ينظرُ منْ شَقِّ بابٍ كانَ مسمُورًا. ثم ما زالَ يفتحُه الأوّلَ فالأوّلَ إلَى أنْ صارَ يُخرجُ رأسهُ ويُبْدِي وجهَه. فلمَّا لم يَرَ شيئًا يَريبهُ، قعدَ في الدِّهْليزِ. فلمَّا زادَ في الأنسِ، جلسَ علَى بابِ الدَّارِ !

ثُم صلَّى معهُم في مُصَلاَّهم ودخلَ . ثُم صلَّى بعدَ ذلكَ وجلسَ. والقومُ عَرَبٌ. وكانوُا يُفِيضونَ في الحديثِ، ويذكرونَ منَ الشِّعر الشاهدَ والمَثَلَ، ومنَ الخبرِ الأيّامَ والمقاماتِ. وهُو في ذلكَ ساكتٌ، إذْ أقبلَ عليهِ ذاتَ يَومٍ فتًى منهُم، خرجَ عنْ أدبِهم، وأغفلَ بعضَ ما راضُوه[3] به منْ سِيرتهم، فقالَ لهُ: يا شيخُ، إنَّا قومٌ نخوضُ في ضروبٍ، فربَّما تكلمنَا بالمَثْلَبَةِ[4]، وأنشدْنا الهِجاءَ. فلو أعلمتنَا ممَّن أنتَ، تجنَّبنا كلَّ ما يسوءكَ. ولو اجتنبنَا أشعارَ الهِجَاء كلَّها، وأخبارَ المثالبِ بأسرهَا، لم نأمنْ أنْ يكونَ ثناؤُنا ومديحُنا لبعضِ العربِ ممَّا يسوءُك. فلو عرَّفتنا نسبَك ، كفينَاك سماعَ ما يسوءُك منْ هجاءِ قومكَ ، ومنْ مديحِ عدوِّك.

فلطمهُ شيخٌ منهُم، وقالَ : لا أمَّ لكَ! مِحْنةٌ كمحنةِ الخوارجِ، وتنقيرٌ[5] كتنقيرِ العيّابين؟ ولِمَ لا تدعُ ما يَرِيبكَ إلى ما لاَ يَريبك؟ فَتَشكُتَ إلاَّ عمَّا توقِنُ بأنَّه يَسرُّه .

قال : وقالَ عبدُ النور : ثُمَّ إنَّ موضعِي نبا بِي لبعضِ الأمرِ . فتحوَّلتُ إلى شِقِّ بني تميم فنزلتُ برجلٍ فأخذتُه بالثِّقَةِ ، وأكمنتُ نفسِيَ إلَى أنْ أعرِفَ سبيلَ القومِ. وكانَ للرجلِ كنيفٌ إلى جانبِ دارِه، يَشْرَعُ في طريقٍ لا ينفُذ. إلاَّ أنَّ مَن مَرَّ في ذلكَ الشارعِ رأَى مسقَطَ الغائطِ من خلاءِ ذلكَ الجَنَاحِ. وكانَ صاحبُ الدارِ ضيّقَ العيشِ، فاتَّسع بنزولِي عليه. فكانَ القومُ إذَا مرُّوا به ينظرونَ إلى موضعِ الزِّبلِ والغائطِ، فلاَ يذهبُ قلبِي إلى شيءٍ ممَّا كانُوا يذهبُون إليهِ .

---

(١) يركلها : أي يضربها برجله .
(٢) الجناح : جزء من البيت .
(٣) راضُوه به : أدبوه به وعودوه إياه .
(٤) بالمثلبة : العيب .
(٥) تنقير : البحث عن الأمور والأخبار .

فبينَا أَنَا جالسٌ ذاتَ يوم إذَا أنَا بأصواتٍ ملتَفَّةٍ علَى البابِ، وإذَا صاحبِي يَنْتَفِي ويعتذرُ، وإذَا الجيرانُ قدْ اجتمعُوا، إليهِ وقالُوا: ما هذَا الثَّلْطُ[1] الذِي يسقُط منْ جَناحِك، بعدَ أنْ كنَّا لا نرَى إلاَّ شيئًا كالبعْرِ، من يُبْس الكَعْكِ؟ وهذا ثَلْطٌ يعبِّرُ عن أكلٍ غضٍّ! ولولاَ أنَّك انْتجعتَ على بعضِ من تَسْتُرُ وتُوارِي لأظهرتَه. وقدْ قالَ الأوَّلُ :

السِّتْرُ دُونَ الفاحشاتِ ولاَ يَلْقاكَ دُونَ الخَيْرِ مِنْ سِتْرِ[2]

ولولاَ أنَّ هذا طَلِبَةُ السلطان، لما توارَى. فلسنَا نأمنُ منْ أنْ يجرَّ علَى الحيِّ بليّةً. ولستَ تُبالِي – إذا حَسُنتْ حالُك في عاجلِ أيَّامِكَ – إلامَ يُفضِي بكَ الحالُ، وما تلقَى عشيرتُك. فإمَّا أنْ تُخرجَه إلينَا، وإما أنْ تُخرجَه عنَّا. قال عبدُ النور: فقلتُ: هذه واللهِ القِيافةُ، ولا قيافةُ[3] بني مُدْلِج! إنَّا لِلهِ! خرجتُ من الجنَّة إلى النارِ! وقلتُ: هذا وَعِيدٌ . وقد أعْذَرَ مَنْ أنْذَرَ. فلم أظنَّ أنَّ اللؤمَ يبلغُ ما رأيتُ منْ هؤلاءِ، ولا ظننتُ أنَّ الكرم يبلغُ ما رأيت منْ أولئك!

(عيشُ آلِ الخطَّاب)

شهدتُ الأصمْعَيّ يومًا، وأقبلَ على جلسائِهِ يسألُهم عنْ عَيْشِهم، وعمَّا يأكلونَ ويشربُونَ. فأقبلَ علَى الذِي عن يمينِهِ فقالَ : أبا فلانٍ ، ما أُدْمُك؟ قالَ : اللحمُ. قالَ: أكُلَّ يومٍ لحمٌ؟ قال : نعمْ. قالَ : وفيه الصفراءُ والبيضاءُ، والحمراءُ والكَدْراءُ، والحامضةُ والحلوةُ والمُرَّةُ؟ قالَ : نعمْ . قالَ : بئسَ العيشُ هذا! ليس هذا عيشَ آلِ الخطَّابِ. كان عُمَر بن الخطَّابِ (رحمةُ اللهِ عليه ورضوانُه) يضرِبُ على هذا. وكانَ يقولُ : مُدْمِنُ اللحم، كمُدْمِنِ الخمرِ.

ثم سألَ الذي يليهِ قالَ : أبَا فلان، ما أدْمُك قالَ : الآدامُ الكثيرةُ ، والألوانُ الطيّبةُ. قالَ: أفي آدامِك سَمْنٌ؟ قال : نعمْ. قالَ: فتجمعُ السَّمنَ والسمينَ علَى مائدةٍ؟ قالَ : نعمْ. قالَ : ليسَ هذَا عيشَ آلِ الخطَّابِ. كانَ ابنُ الخطَّابِ (رحمةُ الله عليه ورضوانُه) يضربُ على هذَا. وكان إذَا وجدَ القُدورَ المختلفةَ الطُّعومِ كدَرها[4] في قِدْر واحدةٍ، وقالَ : إنَّ العربَ لو أكلتْ هذَا لقتلَ بعضُها بعضًا .

ثم يُقبلُ علَى الآخر فيقولُ : أبَا فلان، ما أدمُك؟ قالَ : اللحمُ السمينُ، والجِداءُ الرُّضَّعُ. قالَ : فتأكلُه بالحُوَّارَى[5]؟ قال : نعمْ . قال : ليسَ هذا عيشَ آلِ الخطّابِ. كانَ ابنُ الخطَّابِ .يضربُ على هذَا. أوَ ما سمعتَه يقولُ: أتروْنِي لا أعرفُ الطعامَ الطيِّبَ ؟ لُبابَ البُرِّ بصغارِ المِعْزَى. أَلاَ تراهُ

---

(١) الثلط : ما يخرج من البطن من فضلات رقيقة .

(٢) البيت لزهير بن أبي سُلْمى . ديوانه بشرح ثعلب [٩٥] ، وروايته : « وما يلقاك » بدلاً من « ولا يلقاك » .

(٣) قيافة : تتبع الأثر .

(٤) كدرها : أي صبها في إناء واحد وهي القِدر .

(٥) الحواري : الدقيق الأبيض .

كيفَ ينتفِي منْ أكلِهِ وينتحلُ معرفتَه؟

ثم يُقبلُ علَى الذي يليه فيقولُ : أبَا فلانٍ، ما أُدْمكُ؟ فيقولُ : أكثرُ ما نأكلُ لحومُ الجَزُورِ، ونتّخذ منَها هذه القَلاَيا ، ونجعلُ بعضَها شِوَاء. قالَ : أفتأكلُ من أكبادِها وأسْنِمَتِها، وتتّخذ لكَ الصِباغَ؟ قال : نعمْ . قالَ : ليس هذا عيشَ آل الخطَّابِ. كان ابنُ الخطّاب يضرِبُ على هذا. أوَ ما سمعتَه يقول : أترُوْني لا أقدِرُ أتَّخذ أكبادًا وأفلاذًا وصلائقَ[1] وصِنابًا[2]؟ ألاَ تراه كيفَ يُنكر أكلَه، ويستحسنُ معرفتَه؟

ثم يقولُ للذِي يليه : أبَا فلان ، ما أُدْمُك؟ فيقولُ : الشُّبارِقاتُ[3] والأخبصةُ والفالوذجَات. قالَ : طعامُ العجم ، وعيشُ كِسْرَى، ولُبابُ الْبُرِّ بلُعابِ النحلِ بخالصِ السمنِ - حتَّى أتَى على آخِرهم. كلُّ ذلكَ يَقولُ: بئسَ العيشُ هذا! ليسَ هذَا عيشُ آلِ الخطَّاب. كان ابنُ الخطَّاب يضرِبُ على هذا.

فلمَّا انقضَى كلامُه، أقبلَ عليه بعضُهم فقالَ : يا أبا سَعيدٍ ، ما أُدْمُك؟ قال : يومًا لبنٌ، ويومًا زيتٌ، ويومًا سمنٌ، ويومًا تمرٌ، ويومًا جبنٌ، ويومًا قَفارٌ[4]، ويومًا لحمٌ. عيشُ آلِ الخطَّابِ.

ثم قالَ : قالَ أبو الأشهبِ : كانَ الحسنُ يشترِي لأهلِهِ كلَّ يوم بنصفِ دِرْهم لحمًا. فإنْ غلاَ، فبدرهمٍ. فلمّا حُبِس عطاؤُه كانتْ مَرَقتُه بشحمٍ.

ونُبِّئْتُ عن رجل منْ قريشٍ أنَّه كانَ يقولُ: مَنْ لم يُحسِنْ يَمنعُ، لم يحسنْ يعطِي؛ وأنَّه قال لابنِهِ : أيْ بُنَيَّ، إنَّك إن أعطيتَ في غيرِ موضعِ الإعطاءِ، أوْشَك أن تستعطِيَ النَّاس فلا تُعْطَى.

ثم أقبلَ علينَا فقالَ : هلْ علمت أنَّ اليأسَ أقلُّ من القَناعةِ وأعزُّ. إنَّ الطمعَ لا يزالُ طمعًا، وصاحبُ الطمعِ لا ينتظرُ الأسبابَ، ولا يعرِفُ الطمَعَ الكاذبَ منَ الصادقِ. والعيالُ عِيالانِ: شهوةٌ مُفْسدةٌ، وضِرْسٌ طَحُونٌ. وأكلُ الشهوةِ أثقلُ من أكلِ الضِّرسِ. وقد زعمُوا أنَّ العِيالَ سوسُ المالِ، وأنَّه لا مالَ لذي عيالٍ. وأنَا أقولُ : إنَّ الشَّهوة تبلغُ ما لا يبلغُ السوسُ، وتأْتِي علَى ما يقْصُر دونَه العِيالُ. وقدْ قالَ الحسنُ: ما عالَ أحَدٌ قطْ عنْ قَصْدٍ[5]. وقيلَ لشيخٍ منْ أهلِ البَصْرةِ: مالَكَ لا يَنْمِي لكَ مالٌ؟ قالَ : « لأنِّي اتّخذتُ العِيالَ قبلَ المالِ، واتَّخذ الناسُ المالَ قبلَ العِيالِ ». وقد رأيتُ من تقدَّم عيالُه مالَه ، فَجَبَرَهُ الإصلاحُ، وَرَفَدَه الاقتصاد، وأعانَه حسْنُ التدبيرِ. ولم أر لَشَهْوانيٍّ تدبيرًا، ولا لِشَرِهٍ صبرًا. وقال إياسُ بنُ معاوية[6]: إنَّ الرجلَ يكونُ عليه ألفٌ [فينفقُ ألفًا] ، فيُصْلِحُ ، فتَصْلُح

---

(١) صلائق : جمع صليقة وهي اللحم المشوي .
(٢) صنابا : الصناب طعام يؤتدم به من الخردل والزيت .
(٣) الشبارقات : مفردها شبارق وهي لحم مطبوخ ألوانًا .
(٤) القفار : الخبز بلا أدم .
(٥) القصد : الاعتدال والتوسط .
(٦) إياس : هو ابن معاوية بن قرة المزني أبو واثلة ضرب به المثل في الذكاء فقيل : « أذكى من إياس » لأنه كان صاحب فراسة، وصدق نظر، وذكاء عجيب . توفى سنة ١٢٢ هـ .

له الغَلّةُ. ويكونُ عليه ألفانِ، فيُنفقُ ألفينِ، فيُصلِحُ ، فَتَصْلُح له الغَلّةُ. ويكونُ عليه ألفانِ، فيُنفقُ ثلاثةَ آلافٍ، فيبيعُ العَقارَ في فضلِ النفقةِ.

وذكر الحديثَ عن أبي لِينةَ، قالَ : كنتُ أرَى زيادًا وهو أميرٌ، يمرُّ بنَا علَى بغلةٍ في عُنقِها حبلٌ من ليفٍ مدرَّجٌ على عنقِها.

وكان سَلْم بنُ قُتَيْبَة يركبُ بغلةً وحدَه، ومعه أربعةُ آلافٍ رابِطةٍ. ورآه الفضلُ بن عيسى على حِمار وهو أميرٌ، فقالَ: بِذْلةُ نبيٍّ وقُعُودُ جَبَّارٍ!

ولو شاءَ أبو سَيّارةَ أن يدفعَ بالعربِ على جَمل مَهْرِيّ أو فرسٍ عتيقٍ لفعلَ. ولكنَّه أرادَ هُدَى الصالحين .

وحُمِل عُمَرُ على بِرْذَونٍ،(١) فَهَمْلَجَ(٢) تحتَه. فنزلَ عنه. فقال لأصحابِه: جنِّبوني هذا الشيطانَ. ثم قالَ لأصحابِه : لا تطلبوا العِزَّ بغيرِ ما أعزَّكم اللهُ به .

قد كنتُ أعجبُ من بعضِ السَّلَف حيثُ قالَ : ما أعرِف شيئًا ممَّا كانَ الناس عليه إلاَّ الأَذَانَ. وأنا أقولُ ذلكَ. ولم يزل الناسُ في هبوطٍ ما ترفَّعوا بالإسرافِ، وما رفعُوا البنيانَ للمطاولةِ. وإنَّ منْ أعجبَ ما رأيتُ في هذا الزمانِ، أو سمِعتُ ، مفاخرةَ مُوَيسِ بنِ عِمْرانَ لأبي عُبَيْد اللهِ بنِ سليمان في أيُّهما كانَ أسبق إلَى ركوبِ البراذِينِ! وما للتَّاجِرِ وللبِرْذَوْنِ؟ وما ركوبُ التاجرِ للبراذين إلاَّ كركوبِ العربِ للبقرِ!

ولو كانُوا إذا جلسُوا في الخُيوشِ(٣) ، واتّخَذُوا الحمّاماتِ في الدورِ، وأقامُوا وظائفَ الثَّلج والريحانِ، واتّخذوا القِيانَ والخِصْيان، استردّ الناسُ ودائعَهم، واسترجعتِ القضاةُ أموالَ الأيتامِ والحَشْرِيّة(٤) منهم، لعادُوا إلى دينِهم وعيشِهم واقتصادِهم. وإذَا رآهم أصحابُ الغَلاَّت، وأهلُ الشرفِ والبيوتاتِ، أنِفوا أن يكونُوا دونهم في البِزّة والهيئةِ. فهلكُوا وأهلكُوا .

(صَبُورٌ عَلَى الضحك)

زعمَ أبو يعقوبَ الخُرَيْمِيُّ أنَّ جعفرَ بنَ يحيى أراد يومًا حاجةً كانَ طريقُه إليها على بابِ الأَصْمَعيِّ، وأنَّه دفعَ إلَى خادمٍ له كيسًا فيهِ ألفُ دينارٍ ، وقال لهُ : سأنزلُ في رَجْعِتي إلَى الأصمَعيّ. وسيحدِّثني ويُضحكني. فإذا رأيتَني قد ضحِكْتُ فضع الكيسَ بينَ يديهِ.

فلمّا دخلَ فرأَى حُبًّا(٥) مقطوعَ الرأسِ، وجَرَّةً مكسورةَ العُرْوةِ، وقصعةً مُشَعَّبَةً، وجَفْنَةً أعشارًا،

---

(١) برذون : يطلق على غير العربي من الخيل والبغال عظيم الخلقة غليظ الأعضاء ، قوي الأرجل ، عظيم الحوافر .

(٢) هملج : سار سيرًا حسنًا في سرعة .

(٣) الخيوش : جمع خيش والمقصود الخيمات .

(٤) الحشرية : من يجمعون العشور والجزية .

(٥) حُبًا : الحُب وعاء كبير للماء وهو الزير في عصرنا .

ورآهُ على مُصَلّى بالٍ، وعليهِ بَرْكانٌ[1] أجردُ - غَمزَ غلامَه بعينِه ألاَّ يضعَ الكيسَ بينَ يديه، ولا يدفعَ إليهِ شيئًا .

فلَمْ يدع الأصْمَعيُّ شيئًا ممَّا يُضْحِكُ الثَّكْلان والغَضبَانَ إلاَّ أوردهُ عليهِ، فمَا تبسَّمَ. فقالَ لهُ إنسانٌ: ما أدري منْ أيِّ أمرَيْكَ أعجبُ؟ أمِنْ صبرِك علَى الضحِك، وقد أوردَ عليكَ ما لا يُصْبَرُ على مثلِه، أمْ من تركِكَ إعطاءَه، وقد كنتَ عزمتَ على إعطائِه؟ وهذَا خِلاف ما أعرِفُك به!

قالَ : ويلَكَ ! منِ استرعَى الذئبَ فقدْ ظلمَ[2] . ومن زرعَ سَبَخَةً حصَدَ الفقرَ. إنِّي واللهِ لو علمتُ أنَّه يكتُم المعروفَ بالفعلِ، لمَا ارتفقتُ[3] بنشرِهِ له باللسانِ. وأينَ يقعُ مديحُ اللسانِ، منْ مديحِ آثارِ الغنَى علَى الإنسانِ؟ فاللسانُ قدْ يكذبُ، والحالُ لا تكذِبُ. للهِ دِرُّ نُصَيْب حيثُ يقولُ :

فعالجُوا فأثْنَوْا بالَّذي أنتَ أهْلُه ولو سكتُوا أثْنَتْ عليكَ الحقائبُ

أعلمتَ أنَّ ناوُوسَ أبْرَويزَ[4] أمدحُ له من شعرِ زُهير لآلِ سِنانِ بنِ أبي حارثَة؟ لأنَّ الشاعرَ يكذِبُ ويصدُق ، وبنيانُ المراتبِ لا يكذِبُ مرَّة ويصدُق مرَّة. فلستُ بعائدٍ إلَى هذا بمعروفٍ أبدًا .

(الأَصمعيُّ والاستقراض)

كانَ الأَصْمَعيُّ يتعوَّذُ باللهِ منَ الاستقراضِ والاستفراضِ[5] . فأنعمَ اللهُ عليهِ، حتَّى صارَ هُو المستقرَضَ منهُ، والمستفرَضَ ما عندهُ. فاتَّفَق أنْ أتاهُ في يومٍ واحدٍ رجلاَن. وكانَ أحدُهما يطلبُ الفرْضَ، والآخر يطلبُ القَرْض. هجما عليهِ معا ، فأثقله ذلكَ وملأَ صدرَهُ!

ثُمَّ أقبلَ علَى صاحبِ السَّلَفِ فقالَ : « تتبدَّلُ الأفعالُ، بتبدُّلِ الحالِ. ولكلِّ زمانٍ تدبيرٌ، ولكلِّ شيءٍ مقدارٌ، واللهُ في كلِّ يومٍ في شأنٍ. كانَ الفقيهُ يمرُّ باللُّقَطَةِ[6] ، فيتجاوزُها ولا يتناولُها؛ كي يُمْتَحَنَ بحفظِهَا سِواه، إذْ كانَ جلُّ الناسِ في ذلكَ الدهرِ يريدونَ الأمانةَ، ويَحُوطون اللُّقَطَةَ. فلمَّا تبدَّلُوا وفسَدُوا ، وجبَ علَى الفقيهِ إحرازُها والحفظُ لهَا، وأنْ يصبِرَ علَى ما نابهُ من المحْنةِ، واختُبِر بهِ منَ الكُلْفةِ » .

« وقدْ بَلَغَني أنَّ رجلًا أتَى صديقًا له يستقرضُ منهُ مالًا، فتركهُ بالبابِ، ثم خرجَ إليهِ مُؤْتزِرا. فقالَ لهُ: مالكَ ؟ قالَ : جئتُ للقتالِ واللِّطام، والخصومةِ والصخَبِ. قالَ : ولِمَ؟ قالَ : لأنَّكَ في أخذِ مالي بينَ حالينِ : إمَّا أنْ تَذهَب بهِ، وإمَّا أنْ تَمْطُلَني بهِ. فلو أخذتَهُ علَى طريقِ البِرِّ والصِلَةِ، لاعتدَدتُ عليكَ بحقٍّ، ولوجبَ عليكَ بهِ شكرٌ. وإذَا أخذتَهُ منْ طريقِ السَّلفِ ، كانتِ العادةُ في الدُّيُونِ،

---

(١) بَرْكان : نوع من الثياب .

(٢) ظلم : أي ظلم الغنم . وهو مثل يضرب لمن يولي غير الأمين . لأن الذئب لا يؤمن على الغنم .

(٣) ارتفقت : انتفعت . (٤) ناووس أبرويز : ناووس : قبره وأبرويز أحد ملوك الفرس .

(٥) الاستفراض : طلب الفرض وهو العطية . (٦) باللقطة : شيء ذو قيمة يجده الإنسان في الطريق .

والسيرةُ في الأسلافِ، الردُّ أو التَّقاضِيَ. وإذَا تقاضَيتُك أغضبتُك، وإذَا أغضبتُك أسمعتِني ما أكرهُ، فتجمعُ عليَّ المَطْلَ وسوءَ اللفظِ، والوحشةَ وإفسادَ اليدِ في الأسلافِ، وأنتَ أظْلمُ؛ فأغْضَبُ كما غضِبْتَ. فإذَا نقلتني إلَى حالِك فعلتُ فِعلَكَ، وصرتُ أنَا وأنتَ كمَا قالَ العربيُّ: أنَا تِقٌّ وصاحبِي مَتِقٌّ[1]- فما ظنُّك بمِتِقٍ منَ الغيظِ، مملوءٍ منَ الغضبِ، لاقَى مُثْأَقًا منَ المُوقِ، مملوءًا منَ الكفرانِ؟- ولكنِّي أدخلُ إلَى المنزلِ، فأخرُجُ إليكَ مؤتزرًا، فأعجِّلُ لكَ اليومَ ما أخّرتُه إلى غدٍ. وقدْ علمتَ أنَّ ضربَ الموعظةِ، دونَ ضربِ الحقدِ والسَّخِيمةِ، فتربحُ صَرْفَ ما بينَ الألمين، وفضْلَ ما بينَ الشَّتْمين[2] ».

« وبعدُ فأنا أَضَنُّ بصداقتِي لكَ، وأشِحُّ على نصيبِي منكَ، منْ أنْ أُعَرِّضَهُ للفسادِ، وأنْ أُعِينَكَ على القطيعةِ. فلاَ تلمنِي علَى أنْ كنتَ عندِي واحدًا منْ أهلِ عصرِكَ. فإنْ كنتَ عند نفسكَ فوقَهم، وبعيدًا منْ مذهبِهم، فلاَ تكلِّفِ الناسَ علمَ الغيبِ فتظلمَهم ».

ثم قالَ : « ومازالتِ العاريَّةُ مؤدَّاةً، والوديعةُ محفوظةً . فلمَّا قالُوا : أحقُّ الخيلِ بالرَّكْضِ المُعارُ، بعدَ أنْ كانَ يقالُ : أحقُّ الخيلِ بالصَّوْنِ المُعارُ؛ وبعدَ أنْ قيلَ لبعضِهم: ارفُقْ بهِ، قالَ : إنَّه عاريَّةٌ، وقال الآخرُ: فاقتُلْ فَسدتِ العاريَّةُ ، واستَدَّ هذَا البابُ[3]. ولمَّا قالُوا :

شَمِّرْ قَمِيصَكَ واستعِدَّ لنابلٍ ... واحكُكْ جبينَكَ للقَضَاءِ بِشَوم[4]

واخْفِضْ جَناحَك إنْ مَشَيْتَ تخشُّعًا ... حتَّى تصيبَ وديعةً لِيتيمِ »[5]

« وحينَ أَكَلَتِ الأماناتِ الأُمَناءُ والأَوْصِياءُ، ورَتَع فيها المعدَّلونَ والصرَّافون، وجبَ حفظُها ودفْنُها، وكانَ أكلُ الأرضِ لها خيرًا منْ أكلِ الخَؤونِ الفاجرِ، واللئيمِ الغادرِ. وهذَا معَ قولِ أكثَم بنِ صَيْفيٍّ في ذلكَ الدهرِ: لو سُئِلتِ العاريَّة : أينَ تذهبينَ، قالت: أَكْسِبُ أهلِي ذمًّا » .

« وأنَا اليومَ أنهَى عن العاريَّة والوديعةِ، وعن القرْضِ والفرْضِ، وأكرهُ أن يُخالِف قولِي فعلِي. أمَّا القرْضُ فَلِما أنبأتُك، وأمَّا الفَرْضُ فليسَ يَسعُه إلاَّ بيتُ المالِ. ولو وَهَبْتُ لكَ دِرْهَمًا واحدًا، لفَتَحْتُ علَى مالِي بابًا لا تَسُدُّه الجبالُ والرمالُ، ولو استطعتُ أنْ أجعلَ دونَهُ رَدْمًا[6] كَرَدْمِ يَأجُوجَ ومأجُوجَ » .

---

(١) التتق : السريع إلى الشر والغضب المملوء غيظًا والمتق السريع إلى البكاء .

(٢) الشتمين : شتم الموعظة ، وشتم الحقد ، وألم الأول فيه ربح ، والثاني بخلافه .

(٣) استَدّ : مطاوع سدَّه ، أي أغلقه ، والمقصود بالباب باب الأمانة والوديعة والعارية حتى تؤدى إلى أهلها .

(٤) بشوم : وذلك ليحدث به أثر أسود ، فيختار للقضاء على أنه سواد من أثر السجود .

(٥) في البيان والتبيين [٣/ ١٧٥ ، ١٧٦] عزى لمساور الورق يقولها لابنه . ورواية الشطر الأول من البيت الثاني :

وعليك بالغنوى فاجلس عنده

(٦) الردم : السد وفي التنزيل : ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ [الكهف : ٩٥] .

« إنَّ الناسَ فاغرةٌ أفواهَهم نحوَ منْ عندُه دراهِم؛ فليسَ يمنعهُم منَ النَهْسِ[1] إلاَّ اليأسُ. وإن طعِمُوا لم تبقَ راغِيةٌ ولا ثاغِيةٌ، ولا سَبَد ولا لَبَد، ولا صامتٌ ولا ناطقٌ، إلاَّ ابتلعُوه والتهموهُ أتدرِي ما تريدُ بشيخِكَ ؟ إنَّما تريدُ أنْ تُفقِرَه. فإذَا أفقرتَه فقدْ قتلتَه. وقدْ تعلمُ ما جاءَ في قتلِ النفسِ المؤمنَةِ » :

فلمْ أشبِّه قولَ الأصْمَعيِّ لهذَا الرجلِ، حينَ قالَ : « أنَا أَضَنُّ بكَ، وأشِحُّ علَى نَصيبِي منك منْ أنْ أُعرِّضه للفسادِ » ، إلاَّ بقولِ ثُمامةَ، حينَ قالَ لابنِ سافريٍّ : « بالنظرِ منِّي أقولُ لَكَ، والشفقةِ منِّي أسبُّك » . وذلكَ أنَّه ندمَ، فرأَى أنَّ هذَا القولَ يجعلُ ذلكَ منهُ يدًا ونِعْمةً.

(ثُمامةُ وحسن التخلُّص)

وشهِدتُ ثُمامةَ [وَقَدْ] أتاهُ رجلٌ ، قالَ : لِي إليكَ حاجةٌ ، فقالَ ثُمامةُ: ولي إليكَ أيضًا حاجةٌ. قالَ : وما حاجتُكَ؟ قالَ : لستُ أذكرُها لكَ، حتَّى تضمَنَ لِي قضاءَها. قالَ: نعمْ . قالَ: فحاجتِي ألاَّ تسألَنِي هذه الحاجةَ. قالَ: إنَّك لا تدرِي ما هِي؟ قالَ: بلَى، قد دريْتُ. قالَ : فمَا هِيَ؟ قالَ: هيَ حاجةٌ . وليسَ يكون الشيءُ حاجةً، إلاَّ وهي تخرُجُ إلى شيءٍ منَ الكُلْفةِ. قالَ : فقدْ رجَعْتُ عمَّا أعطيتُك. قالَ : لكِنِّي لا أرُدُّ ما أخذْتُ.

فأقبلَ عليهِ آخرُ فقالَ : لِي حاجةٌ إلَى منصورِ بنِ النُعْمانِ. قالَ : قلْ : لِي حاجةٌ إلَى ثُمامةَ ابنِ أشْرَس؛ لأنِّي أنَا الذِي أقضِي لكَ الحاجةَ؛ ومنصورٌ يَقضيها لِي. فالحاجةُ أنَا أقضيهَا لكَ، وغيري يقضيهَا لِي[2].

ثُم قالَ : فأنَا لا أتكلّمُ في الولاياتِ، ولا أتكلّمُ في الدراهِمِ؛ لأنَّ الدراهمَ من قلوبِ النَّاسِ، ولأنَّ الحوائجَ تَنْقَضُّ. فمنْ سألتُه اليومَ أنْ يُعطيَكَ، سألَنِي غدًا أنْ أُعطيَ غيركَ. فتعجيلي تلكَ العطيَّةَ لكَ أَرْوَحُ لِي. ليسَ عندِي دراهمٌ، ولو كانَ عندِي دراهمٌ ، لكانتِ نوائبِي القائمةُ الساعةَ تستغرقُها. ولكنِّي أوُنِّبُ لكمَ مَنْ شئتُم. عليَّ لكُم منَ التأنيبِ كلُّ ما تريدونَ .

قلتُ لهُ : فإذَا أتيتَ رجلًا في أمرٍ لم تتقدَّمْ فيهِ بمسألةٍ، كيفَ يكونُ جوابُه لكَ؟ فضحِكَ حتَّى استندَ إلَى الحائطِ .

(لِمَ تهدِمُهَا؟)

وجاء مرَّةً أبو هَمَّامٍ المُسَوِّطُ ، يكلِّمُه في مَرَمَّةِ دارِهِ التي تطوَّعَ ببنائِهَا في رِباطِ عَبَّادَان[3]، فقالَ :

(١) النهس : انتزاع اللحم بمقدم أسنانه ونتفه للأكل .

(٢) انظر العقد الفريد [٦/ ١٥٥] .

(٣) عبادان : جزيرة أحاط بها شعبتا « دجلة » .

(ذكَّرتني الطعنَ وكنتُ ناسيًا) . قدْ كنتُ عزمتُ على هدمِهَا، حينَ بلغني أنَّ الجبَرِيَّةَ[1] قد نزلتْها. قالَ : سبحانَ اللهِ: تهدِمُ مَكْرُمةً ودارًا قدْ وقفتَها للسبيلِ؟ قالَ : فتعجَبُ مِنْ ذَا؟ قدْ أردتُ أن أهدِمَ المسجدَ الذِي كنتُ بنيتُه ليزيدَ بنِ هشام ، حينَ تركَ أنْ يبنيَه في الشارعِ، وبناهُ في الرائغِ[2]، وحينَ بلغني أنَّه يخلِطُ في الكلامِ، ويُعينُ البِشْرِيَّةَ[3] على المعتزلةِ. فلو أرادهُ أبو همَّام، وجَد مِنْ ثمامةَ مِرْبدًا جميعَ مساحةِ الأرضِ.

وكانَ حينَ يسوِّي لكَ اللفظَ، لا ينظُر في صلاحِ المعاني منْ فسادِها.

(نماذجُ من البخلاءِ)

وتمشَّى رجلٌ إلَى الغاضِريِّ، قالَ : إنَّ صديقَك القادِميَّ قد قُطِع عليه الطريقُ. قال : فأيُّ شيءٍ تريدُ؟ قالَ: أن تُخْلِفَ عليه. قالَ : فليس عليه قُطِعَ الطريقُ، بل عليَّ قُطِع!

وأتى ابنَ سكابٍ الصَّيْرفيَّ صديقٌ لهُ يستلِفُ منهُ مالًا، فقالَ : لو شئتُ أنْ أقولَ لقلتُ، وأنْ أعتلَّ اعتللتُ، وأنْ أستعيرَ بعضَ كلامِ مَنْ يستلِفُ منهُ إخوانُه فعلتُ. وليسَ أرى شيئًا خيرًا منَ التصحيحِ وقَشْرِ العصا، وليسَ أفعلَ. فإنِ التمستَ لي عذرًا، فهو أرْوَحُ لقلبِكَ، وإنْ لم تفعلْ، فهوَ شرٌّ لك.

(إسراعٌ بالكتابةِ إلَيْه)

وضاق الفَيْضُ بنُ يزيدَ ضيقًا شديدًا، فقالَ : والله ما عِندنَا مِنْ شيءٍ نُعوِّلُ عليهِ ، وقدْ بلغَ السكينُ العظمَ. والبيعُ لا يكونُ إلاَّ معَ طولِ المدّةِ. والرأيُ أنْ تُنْزِلَ هذهِ النائبةَ بمحمدِ بنِ عَبّادٍ، فإنَّه يعرفُ الحالَ، وصحَّةَ المعاملةِ، وحسنَ القضَاءِ، وما لنَا منَ السَبَبِ المنتظرِ فلو كتبتُ إليه كتابًا لسرَّهُ ذلكَ، ولسدَّ منَّا هذهِ الخَلَّةَ[4] القائمةَ الساعةَ.

فتناولَ القلمَ والقِرطاسَ ليكتبَ إليه كتابَ الواثِقِ المُدِلِّ، لا يشكُّ أنَّهُ سيتلقَّى حاجتَه، بمثل ما كانَ هو المتلقِّيَ لها منه – ومضَى بعضُ من كانَ في المجلسِ إلى محمَّدِ بن عَبّادٍ، ليُبشِّرَه بسرعةِ ورودِ حاجةِ الفيضِ إليهِ. فأتاه أمرٌ لا يقومُ بهِ. فأمرَ بالكتابةِ إليهِ ليشغَلَه بحاجتهِ إليهِ، عن حاجتهِ إليهِ.

فكتبَ إليهِ :

مالِي يَضْعفُ، والدَخْلُ قليلٌ، والعِيالُ كثيرٌ، والسِعْرُ غالٍ. وأرزاقُنا منَ الديوانِ قدْ احتُبِسَتْ. وقد تفتَّحتْ علينَا منْ أبوابِ النوائبِ في هذهِ الأيَّامِ، ما لمْ يكنْ لنَا في حسابٍ. فإنْ رأيتَ أنْ تبعثَ إليَّ بما أمكنَكَ فعجِّل بهِ، فإنَّ بنَا إليهِ أعظمَ الحاجةِ.

---

(١) الجبرية : فرقة ترى أن الناس مجبرون على أفعالهم لا اختيار لهم فيها . وأنهم لا قدرة لهم .

(٢) الرائغ : الطريق المائل والمعنى المقصود أنه في منعطف من الطريق بعيد عن الشارع .

(٣) البِشرية : طائفة من المعتزلة ينسبون إلى بشر بن المعتمر ولهم آراء يخالفون فيها المعتزلة .

(٤) الخلة : الحاجة والفقر .

فوردَ الكتابُ علَى الفيضِ قبلَ نفوذِ كتابِهِ إليهِ. فلمَّا قرأَهُ استرجَعَ، وكتبَ إليهِ:

يا أَخِي، تضاعفتْ عليَّ المصيبةُ، حتَّى جَمَعَتْ خَلَّةَ عِيالكَ إلَى خلَّةِ عِيالِي. وقدْ كنتُ على الاحتيالِ لهمُ. وسأضطرِبُ في وجوهِ الحِيَلِ غَيْرَ هذَا الاضطرابِ. وسأتحرَّكُ في بيعِ ما عندِي، ولو ببعضِ الطرحِ[1].

فلمَّا رجعَ الكتابُ إلَى ابن عَبَّادٍ سكَنَ، وألقَى صاحبَه في أشدِّ الحركةِ، وأتعبِ التعبِ.

(رَضيتُ بِمَا حَضَر)

وكانَ رجلٌ منْ أبناءِ الحريَّةِ ، لهُ سخاءٌ وأرْيَحِيَّةٌ . وكانَ يُكْثِرُ منَ استزارةِ ابنِ عَبَّادٍ، ويُتْلِفُ عليهِ منَ الأموالِ، منْ طريقِ الرغْبةِ في الأدباءِ، وفي مشايخِ الظرفاءِ. وكانَ يظنُّ بكرمِهِ أنَّ زيارتَه ابنَ عبَّادٍ في منزلِهِ زيادةٌ في المؤانسةِ. وقد كانَ بلغه إمساكُهُ، ولكنَّه لم يظنَّ أنَّه لا حيلةَ لهُ في سببِهِ .

فأتاهُ يومًا مُتطرِّفًا، وقالَ : جئتُكَ منْ غير دُعاءٍ. وقدْ رضِيتُ بمَا حضرَ. قالَ : فليس يحضُر شيءٌ. وقولُكَ: (بِمَا حَضَرَ) ، لا بدَّ منْ أنْ يَقعَ علَى شيءٍ: قالَ : فقطعةُ مالحٍ[2] ، قالَ : وقطعةُ مالحٍ ليسَ هيَ شيءٌ؟ قالَ: بلَى . فنحنُ نشربُ علَى الريقِ؟ قالَ : لو كانَ عندنَا نبيذٌ كنَّا في عُرْسٍ. قالَ : فأنَا أبعثُ إلَى نبيذٍ. قالَ : فإذَا صرتَ إلى تحويلِ النبيذِ، فحوِّل أيضًا ما يصلُح للنبيذِ: قالَ : ليسَ يمنعُني منْ ذلكَ، ومنْ إحضارِ النَّقْلِ والرَّيْحانِ، إلاَّ أنْ أحتسِبَ لكَ هذه الزوْرةَ بدعوةٍ . وليسَ يجوزُ ذلكَ إلاَّ بأنْ يكونَ لكَ فيهَا أثرٌ.

فقالَ محمدٌ : فقدْ انفتحَ لي بابٌ لكم فيه صلاحٌ ، وليسَ عليَّ فيه فسادٌ: في هذهِ النخلةِ زَوْجُ وَرَشانٍ[3]. ولهما فَرْخانِ مُدْرِكانِ. فإنْ نحنُ وجدنَا إنسانًا يصعَدُها - فإنَّها سحيقةٌ مُنْجَرِدةٌ[4] - ولم يطيرَا - فإنَّهما قدْ صارَا ناهِضَيْنِ - جعلنَا الواحدَ طَبَاهَجَةً[5] والآخر جَرْدنَاجَا[6]، فإنَّه يومُ جَرْدَناج !

فطلبُوا في الجيرانِ إنسانًا يصعدُ تلكَ النخلةَ، فلمْ يقدرُوا عليهِ. فدلُّوهم على أكَّارٍ[7] لبعضِ أهلِ الحريَّةِ. فما زالَ الرسولُ يطلبُه حتَّى وقعَ عليه. فلمَّا جاءَ ونظرَ إلَى النخلةِ قال : هذه لا تُصْعَدُ ولا يُرْتَقَى عليهَا إلاَّ بالتبليا والبَرَبَنْدِ[8]. فكيفَ أرومُها أنَا بلاَ سببٍ؟ فسألوه أنْ يلتمسَ لهم ذلِكَ . فذهبَ فَغَبَرَ مَلِيًّا. ثُم أتاهُم بهِ. فلمَّا صارَ في أعلاَها، طارَ أحدُهما، وأنْزَلَ الآخرَ. فكانَ هو الطَّبَاهَجَ والجَرْدنَاج، وهُو الغَدَاءَ، وهو العَشاءَ !

---

(١) بعض الطرح : بعض الخسارة .
(٢) قطعة مالح : أي قطعة من سمك أو لحم مملوح .
(٣) الورشان : طائر .
(٤) منجردة : ملساء مع علوها .
(٥) طباهجة : اللحم المقلي على نحو خاص بعد الشرح .
(٦) الجردناج : اللحم يغلي في الماء قليلا ثم يشوى .
(٧) الأكار : الحراث ، وقد سبق .
(٨) البربند : الحزام يصعد به النخل .

(الصديقُ العاقلُ)

وكتبَ إبراهيمُ بنُ سَيَّابةَ إلَى صديقٍ لهُ يساويهِ في الأدبِ، ويرتفعُ عليهِ في الحالِ- وكانَ كثيرَ المالِ، كثيرَ الصامِتِ - يستسلفُ منهُ بعضَ ما يرتفِقُ به، إلى أنْ يأتيَهُ بعضُ ما يُؤمِّلُ. فكتبَ إليهِ صديقُه هذَا يعتذرُ ويقولُ :

إنَّ المالَ مكذوبٌ لهُ وعليهِ . والناسُ يُضيفونَ إلى الناسِ في هذَا البابِ ما ليسَ عندهُم. وأنا اليومَ مضيَّقٌ، وليستِ الحالُ كما نحبُّ. وأحقُّ منْ عذَر، الصديقُ العاقلُ.

فلمَّا وردَ كتابُه على ابن سَيَّابةَ، كتبَ إليه :

إن كنتَ كاذبًا ، فجعلَكَ الله صادقًا ، وإن كنتَ مَلُومًا ، فجعلَكَ الله معذورًا.

(الكتابُ طويلٌ)

قالَ عَمْرٌو الجاحظُ : احتجْنا عند التطويل ، وحين صار الكتاب طويلا كبيرًا ، إلى أنْ يكونَ قد دخلَ فيه من علمِ العربِ وطعامِهم، وما يتمادحون به، وما يتهاجَوْن بهِ، شيءٌ وإنْ قلَّ؛ ليكونَ الكتابُ قد انتظمَ جُمَلَ هذَا البابِ. لولاَ أن يخرجَ منْ مقدارِ شهوةِ الناسِ، لكان الخبَرُ عن العربِ والأعرابِ ، أكثرَ منْ جميعِ هذَا الكتابِ.

(ضُروبُ الطَّعامِ)

الطعامُ ضروبٌ . والدعوةُ اسمٌ جامعٌ . وكذلك الزَّلَّةُ[1]. ثُم منهُ العُرْسُ والخُرْسُ والإعذارُ والوَكِيرةُ والنقِيعَةُ. والمأدُبَةُ اسمٌ لكلِّ طعامٍ دُعِيَتْ إليهِ الجماعاتُ .

قال الشاعرُ :

نَحْنُ في المَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلَى لا تَرَى الآدِبَ فينَا يَنْتَقِرْ[2]

وجاءَ في الحديث : « القرآنُ مأدُبة اللهِ »[3] . وقدْ زعمَ ناسٌ أنَّ العُرْسَ هُو الوليمةُ، لقولِ النبيِّ ﷺ لعبدِ الرحمنِ : « أوْلِمْ ولوْ بِشاةٍ »[4] وكانَ ابنُ عوفٍ والأصْمَعيُّ من بعدِهِ يذُمَّان عمرو بنِ عُبَيْد، ويقولاَن: لا يُجيبُ الولائمَ، يجعلان طعامَ الإملاكِ والإعراسِ والسُّبُوعِ والخِتان وليمةً. والعُرْسُ معروفٌ. إلاَّ أنَّ المُفَضَّلَ الضَبِّيّ زعمَ أنَّ هذا الاسمَ مأخوذٌ مِنْ قولِهم: لا عطْرَ بعدَ عَرُوسٍ . وكانَ الأصْمَعيُّ يجعلُ العَرُوسَ رجلًا بعينهِ ، كانَ بَنَى على أهلِه فلمْ تتعطَّر لهُ. فَسُمِّيَ بعدُ لذلك كلُّ بانٍ على أهلِه بذلكَ الاسمِ. ومثلُ هذَا لا يثبُتُ إلاَّ بأنْ يستفيضَ في الشعرِ، ويظهرَ في الخَبَرِ.

---

(١) الزَّلَّة : الوليمة . (٢) البيت لطرفة بن العبد ، ديوانه [٦٥] . (٣) ضعيف . أخرجه الحاكم في المستدرك [١/ ٥٥٥] .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب . باب الإخاء والحلف [١٠/ ٥١٧] وفي مواضع أخرى . ومسلم في النكاح . باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن . . . [٧٩، ٨٠، ٨١] وأبو داود والترمذي وابن ماجة والدارمي ومالك وأحمد .

وأمَّا الخُرْسُ فالطعامُ الذِي يُتَّخَذُ صَبيحةَ الولادةِ للرجالِ والنساءِ. وزعمُوا أنَّ أصلَ ذلكَ مأخوذٌ منَ الخُرْسةِ. والخُرْسةُ طعامُ النُّفَساءِ. قالتْ جاريةٌ ولدتْ حينَ لم يكنْ لهَا منْ يخدمُهَا ويمارِسُ لهَا ما يُمَارَسُ للنفساءِ: تخرَّسِي، لا مُخَرْسَةَ لكِ .

وفي الخُرْسةِ يقولُ مُساوِرٌ الورَّاقُ :

إذَا أَسَدِيَّةٌ ولدتْ غلامًا ... فبشِّرْها بِلُؤْمٍ في الغُلامِ

تُخَرِّسُها نساءُ بنِي دُبَيْرٍ ... بأَخْبَثِ ما يَجِدْنَ منَ الطَّعَامِ

وقالَ ابنُ قَمِيئَة :

شَرُّكُمْ حاضرٌ وخيْرُكم دَرْءٌ ... خَرُوسٍ منَ الأرانبِ بِكْرِ[1]

فالخَروسُ هي صاحبةُ الخُرْسةِ .

والإعْذارُ طعامُ الخِتانِ. يقالُ : صبيٌّ معذورٌ ، وصبِيٌّ مُعْذَرٌ ، جميعًا . وقالَ بعضُ أصحاب النبيِّ ﷺ ، وهُوَ يريدُ تقارُبَهم في الأسنانِ : كنَّا إعذارَ عامٍ واحدٍ .

وقالَ النابغةُ :

فنُكِحْنَ أَبْكارًا وهُنَّ بإِمَّةٍ ... أغْجَلْنَهُنَّ مَظِنَّةَ الإعْذارِ[2]

فزعَمُوا أنَّهم سَمَّوْا طعامَ الإعذارِ بالإعذارِ ، للملابسةِ والمجاورةِ .

كانَ الأَصْمَعيُّ يقولُ : قدْ كانَ للعربِ كلامٌ علَى معانٍ. فإذَا ابتُدلتْ تلكَ المعانِي، لم تتكلَّمْ بذلكَ الكلامِ. فمنْ ذلِكَ قولُ الناسِ اليومَ : ساقَ إليهَا صَدَاقَها. وإنَّما كانَ هذَا يقالُ حينَ كانَ الصداقُ إبلًا وغنمًا. وفي قياسِ قولِ الأَصْمَعيِّ أنَّ أصحابَ التَّمرِ الذين كانَ التمرُ دِيَاتِهم ومهورَهم، كانُوا لا يقولُونَ : ساقَ فلانٌ صَداقَه. قالَ : ومِنْ ذلِكَ قولُ الناسِ اليومَ : « قدْ بنَى فلانٌ البارحةَ على أهلِهِ » . وإنَّما كانَ هذَا القولُ لمنْ كانَ يضرِبُ على أهلِه في تلك الليلةِ قُبَّتَه وخَيْمَته. وذلكَ هو بناؤُه .

ولذلكَ قال الأوَّلُ :

لو نَزَلَ الغَيْثُ أَبْنَيْنَ امْرَأً ... كانَتْ له قُبَّةُ سَحْقَ بِجَادْ[3]

وكانَ الأَصْمَعيُّ يَعُدُّ منْ هذَا أشياءَ ليسَ لذكرهَا هاهُنَا وجهٌ .

ومِنْ طعامِهم الوَكِيرةُ. وهُو طعامُ البناءِ. كانَ الرجلُ يُطعمُ منْ يَبنى لهُ. وإذَا فرغَ مِن بنائِه تبرَّك بإطعامِ أصحابِه ودعائِهم.

---

(١) ديوانه [٢٠١] . (٢) ديوانه [٦٠] برواية « فأصبن » بدلا من « فنكحن » . والإمّة : الحالة الحسنة .

(٣) أبنين ، يقال : أبنيت فلانًا بيتًا ؛ إذا أعطَيْتَه بَيْتًا يَبْنيه ، أو جعلته يبني بيتًا . السحق : البالي من الثياب . البجاد : ثوب مخطط . والبيت في اللسان (بنى) برواية : « لو وَصَل الغَيْثُ . . » .

ولذلكَ قالَ قائلهُم :

خيرُ طعامٍ شهِدَ العَشِيرهْ العُرْسُ والإعذارُ والوَكيرهْ[1]

ويسمُّونَ ما ينحَرونَ من الإبلِ والجُزُرِ من عُرْضِ المغنَم النَقِيعةَ .

قالَ الشاعرُ :

إنَّا لنَضْرِبُ بالسُّيوف رءوسَهُمْ ضَرْبَ القُدارِ نَقِيعةَ القُدامِ[2]

والعَقِيقةُ دَعْوةٌ علَى لحمِ الكبشِ الذي يُعَقُّ عن الصَّبيِّ. والعقيقَةُ اسمٌ للشَّعْر نفسِه. والأشعارُ هيَ العقائقُ . وقولُهم : عُقُّوا عنهُ، أي احلقوا عَقيقَته. ويقولُون: عُقَّ عنه، وعُقَّ عليه. فَسُمِّيَ الكبشُ – لقربِ الجِوارِ وسبب المتلبِّس – عَقيقةً . ثُمَّ سَمَّوْا ذلكَ الطعامَ باسمِ الكبشِ.

وكانَ الأصْمَعيُّ يقولُ : لا يقولَنَّ أحدُكم: أكلتُ مَلَّة، بلْ يَقولُ : أكلتُ خُبْزَةً. وإنَّما المَلَّة موضعُ الخبزةِ. وكذلكَ يقولُ في الراوِيةِ والمزادةِ، يقولُ : الراويةُ هو الجملُ. وزعمُوا أنَّهم اشتقُّوا الراويةَ للشِّعرِ منْ ذلكَ .

(الممدوحُ والمذمُومُ في الدعاء إلى الطَعامِ)

فأمَّا الدعاءُ إلى هذهِ الأصنافِ، فمنهُ المذمومُ، ومنه الممدوحُ. فالمذمومُ النَقَرَى، والممدوحُ الجَفَلَى. وذلك أنَّ صاحبَ المأدُبةِ ووليَّ الدعوة، إذَا جاءَ رسولُه، والقومُ في أحْوِيَتهم[3] وأنديتهم، فقالَ : أجيبُوا إلَى طعامِ فلانٍ. فجعلَهُم جُفْلةً واحدةً، وهيَ الجُفالةُ[4]. فذلكَ هُو المحمودُ. وإذَا انتقرَ فقالَ: قُمْ أنتَ يا فلانُ، وقُمْ أنتَ يا فلانُ؛ فدعَا بعضًا وتركَ بعضًا ، فقد انتقرَ.

قالَ الهُذَليُّ :

وَلَيْلَةٍ يَصْطَلِي بالفَرْثِ جَازِرُها يَخُصُّ بالنَّقَرَى المُثْرِينَ دَاعِيهَا[5]

يقولُ : لا يدعُو فيهَا إلاَّ أصحابَ الثروةِ وأهلَ المكافأةِ. وهذَا قبيحٌ .

وقالَ في ذلِكَ بعضُ ظرفائِنَا :

آثَرَ بالجَدْيِ وبالمائدهْ مِنْ كانَ يرجُو عندَه الفائِدَهْ

لو كانَ مَكُّوكانِ في كفِّهِ مِنْ خَرْدل ما سقطَتْ واحِدَهْ

وقالَ طَرَفَةُ بنُ العبدِ[6] :

---

(١) في اللسان (خرس ، عذر ، نقع) ، ومجمع الأمثال [٢/ ١٨٢] .

(٢) القُدَام : المَلِك ، وقيل : القُدَام ههنا جمعُ قادم من سَفَر . والبيت لمهَلْهِل . اللسان (قدر ، قدم) .
القُدار : الطَّبّاخ ، وقيل : الجَزّار ، وقيل : الجَزّار هو الذي يَلي جَزْر الجَزُور وطَبْخَها .

(٣) أحويتهم : جمع حواء ، وهو بيوت الناس مجتمعة على ماء وهي من الوبر . (٤) الجُفالة : الجماعة من الناس .

(٥) البيت لجَنوب أخت عمرو ذي الكَلْب ترثيه . شرح أشعار الهذليين [٢/ ٥٨٢] ، برواية « يَخْتَصّ » بدلا من « يَخُصّ » .

(٦) هو أبو عمرو طرفة بن العبد بن سفيان البكرى الوائلي من شعراء الطبقة الأولى في العصر الجاهلي ، وصاحب معلقة . توفى قبل الإسلام .

نحنُ في المَشْتَاةِ ندعُو الجَفَلَى لا تَرى الآدِبَ فينَا يَنْتَقِرْ

ولمَّا غزَا بِسطامُ بنُ قَيس الشَّيْبانيُّ مالكَ بنَ المُنْتَفِقِ الضَّبِّيّ، وأَثْبَتَهُ عاصمُ بنُ خليفَة الضبيُّ، شدَّ عليه فطعنهُ وهُو يقولُ :

* هـذَا وفـي الـجَـفْـلَـةِ لا يـدعُـونـي *

ويُروَى : في الحَفْلَة لا يدعُوني. كأنَّه حقدَ عليهِ، حين كانَ يدعُو أهلَ المجلسِ ويدعُهُ.

(الطعامُ المذمُومُ)

والطَّعامُ المذمومُ عندهُم ضَرْبانِ : أحدُهما طعامُ المجَاوِعِ والحُطَمَاتِ[1]، والضَرائِكِ[2] والسَبارِيتِ[3] ، واللئام والجُبَناءِ، والفقراءِ والضعفاءِ. منْ ذلِكَ: الفَثُّ[4] والدُّعاعُ[5] والهَبِيدُ[6] والقُرامةُ والقُرَّة والعُسُومُ[7] وَمُنْقَعُ البَرَمِ[8] والقَصِيدُ[9] والقَدُّ[10] والحيَّاتُ .

فأمَّا الفَظُّ فإنَّه وإنْ كانَ شرابًا كريهًا، فليسَ يدخلُ في هذَا البابِ. وكذلكَ المَجْدوحُ. فأمَّا الفَظُّ فإنَّه عُصارةُ الفرْثِ، إذَا أصابهُم العطشُ في المفاوزِ. وأمَّا المجدوحُ، فإنَّهم إذا بلغَ العطشُ منهم المجهودَ، نحرُوا الإبلَ، وَتَلَقَّوْا ألْبَابَها بالجِفانِ، كيْ لا يضيعَ مِنْ دِمائِها شيءٌ . فإذا بَرَد الدمُ ضربُوه بأَيديهم، وَجَدحوهُ بالعيدانِ جَدْحًا، حتَّى ينقطعَ، فينعزلَ ماؤُه منْ ثُفْلِهِ، كمَا يخلُصُ الزُّبدُ بالمخِيضِ، والجُبنُ بالإنْفَحةِ، فيتصافنونَ ذلكَ الماءَ، ويتبلغونَ به، حتى يخرجُوا من المفازةِ .

وقالَ الشاعرُ :

لَـمْ تَـأْكُـلِ الـفَـثَّ والـدُّعَـاعَ ولـم تَـجْـنِ هَـبِـيـدًا يَـجْـنِـيـه مُـهْـتَـبِـدُ[11]

وقالَ أُميَّةُ بنُ أبي الصَّلْتِ[12] :

ولا يـتـنـازعـونَ عِـنـانَ شِـزْكٍ ولا أقـواتُ أَهْـلِـهِـمُ الـعُـسُـومُ

ولا قَـرْنٌ يُـقَـزِّزُ مِـنْ طَـعَـامٍ ولا نَـصَـبٌ ولا مَـوْلًـى عَـدِيـمُ[13]

وقالَ معاويةُ بنُ أبِي رَبيعةَ الجَرْميُّ في القُرَّةِ، وهو يُعيِّر بني أسدٍ وناسًا من هَوازِنَ، وهمَا ابنا

---

(١) الحُطَمَات : مفردها الحطمة وهي السنة الشديدة الجدب . (٢) الضَرائك : مفردها ضريك وهو الفقير البائس .

(٣) السَبارِيت : مفردها السبروت وهو الفقير المسكين . (٤) الفَثُّ : شجرة الحنظل .

(٥) الدعاع : حبة سوداء تؤكل عند الجدب في البادية . (٦) الهبيد : الحنظل أو حبه .

(٧) العسوم : جمع عسم وهو الخبز اليابس .

(٨) منقع البرم : جمع برمة وهي ثمرة شجر الوضاة وهو كل شجر له شوك . (٩) القصيد : اللحم اليابس .

(١٠) القَدّ : جلد الشخلة عند الجدب والشخلة من أولاد الضأن والماعز ساعة أن تولد .

(١١) للطرماح في ديوانه [٢٠٦] ، ورواية الشطر الثاني : ∴ تَثْفَهُ هَبِيدًا يَجْتَبِهُ مُهْتَبِدُهْ ∴.

(١٢) أمية بن أبي الصلت الثقفي : شاعر فحل بل هو أشعر أهل المدر (وهي البيوت المبنية) كان على عهد بعثة النبي ، وكان قد نظر في الكتب السابقة ، فتعبد لإله إبراهيم وإسماعيل وشك في الأوثان وحرم الخمر ، وكان ينتظر النبوة ولذا حقد على النبي وحرض قريشًا على الأخذ بثأر قتلى بدر . توفى في السنة الخامسة من الهجرة .

(١٣) ديوانه [ص٥٥] .

القَمْليَّة[1] :

ألـمْ تَـرَ جَـزْمًـا أَمْـجَـدَتْ وأبـوكُـم ... مـعَ الـشَّـعـر فـي قَـصِّ الـمـلـبِّـدِ شَـارِعُ
إِذَا قُـرَّةٌ جـاءتْ يـقـولُ : أصِـبْ بـهـا ... سِوى القـمـلِ إني مِنْ هَوازنَ ضارِعُ[2]

والقُرامةُ نُحاتةُ القُرونِ والأظلافِ والمنَاسِم وبُرادتُها. والعِلْهِزُ القِرْدانُ؛ ترضُّ وتعجنُ بالدمِ. والقُرَّةُ الدقيقُ المختلِطُ بالشَّعرِ. كانَ الرجلُ منهم لا يحلقُ رأسَه إلاَ وعلى رأسِه قُبْضةٌ منْ دقيقٍ، للأكلِ. فهو مَعِيبٌ .

وفي أكلِ الحيَّاتِ بقولِهِ ابنُ مُناذرٍ :

فـإيَّـاكُـمُ والـرِّيـفَ لا تَـقْـرَبُـنَّـهُ ... فإنَّ لديهِ الحَيْفَ[3] والموتَ قاضيَا
وهُـمْ طـردوكُـم عـنْ بـلادِ أبـيـكُـمُ ... وأنـتـمُ حُـلـولٌ تَـشْـتَـوُونَ الأفـاعـيَـا

وقال القُطاميُّ في أكلِهم القِدَّ :

تَـضَـيَّـفْـتُ فـي طَـلٍّ ورِيـحٍ تَـلُـفُّـنـي ... وفـي طِـرْمِـساءَ[4] غـيـرِ ذاتِ كـواكـبِ
إلـى حَـيْـزَبـونٍ[5] تُـوقـد الـنـارَ بَـعْـدَ مَـا ... تَـلَـفَّـعَـتِ الـظَّـلْـمـاءُ مـن كـلِّ جـانـبِ
فَـسَـلَّـمْـتُ ، والـتَّـسْـلِـيـمُ لَـيْـسَ يَـسُـرُّهـا ... ولـكـنَّـه حـقٌّ عَـلَـى كـلِّ جـائِـبِ[6]
فَـلَـمَّـا تَـنَـازَعْـنَـا الـحـديـثَ سـألـتُـهـا: ... مَـنِ الحَيُّ؟ قالتْ: مَعْشَرٌ مِنْ مُحاربِ
مِـنَ الـمُـشْـتَـوِيـنَ الـقِـدَّ فـي كـلِّ شَـتْـوةٍ ... وإن كانَ رِيفُ النَّاسِ لَيْسَ بناضِبِ[7]

وقالَ الراعي :

بَـكَـى مُـنْـذِرٌ مـنْ أَنْ يُـضـافَ وطـارقٌ ... يَـشُـدُّ مِـنَ الـجـوعِ الإزارَ عَـلـى الـحَـشَـا
إِلَـى ضَـوْءِ نـارٍ يَـشْـتَـوِي الـقِـدَّ أهـلُـهـا ... وقَـدْ تُـكْـرَمُ الأضـيـافُ والقِـدُّ يُـشْـتَـوَى[8]

وقدْ يضيِّقونَ في شرابِ غيرِ المجدوحِ والفظِّ، في المَغَازِي والأسفارِ؛ فيمدحُونَ مَنْ آثرَ صاحبَه، ولا يذمُّونَ منْ أخذَ حقَّه منهُ. وهُو ماءُ المُصافنةِ. والمُصافنةُ مُقاسمةُ هذَا الماءِ بعينهِ. وذلكَ أنَّ الماءَ إذَا نقصَ عنِ الريِّ، اقتسموهُ بالسَّواءِ. ولم يكنْ للرئيسِ ولاَ لصاحبِ المِرْباعِ[9] والصَفِيِّ[10] وفَضولِ المَقَاسِم فضلٌ علَى أخسِّ القوْمِ. وهذَا خُلُقٌ عامٌّ ومَكْرُمةٌ عامَّةٌ في الرؤساءِ.

---

(١) قملية : قصيرة جدًا .
(٢) البيتان في الحيوان [٥/ ٣٧٨] ، برواية : « أنجدت » أي دخلت بلاد نجد ، بدلاً من « أمجدت » ، وهو تحريف كما أشار محققه .
(٣) الحَيْف : الظلم والجور .
(٤) الطرمساء : الظلمة . ورواية الديوان : « تَلَفْعَتْ . . » .
(٥) حيزبون : هي العجوز وذات الخلق السيئ .
(٦) في الديوان : « . . . . كلِّ جَأْنِبٍ » ، والجأنب : الغريب .
(٧) ديوان القطامي [٥١ ، ٥٢] وروايته :
مِـنَ الْمُشْـتَـوِيـن الـقِـدَّ مُـذْ تـراهـمُ ... جِـيـاعًـا ورِيـفُ الـنـاسِ لَـيْـس بـنـاضـبِ
(٨) ديوانه [ص ٢] .
(٩) صاحب المرباع : الرئيس الذي يأخذ ربع الغنيمة .
(١٠) الصفي : هو ما يصطفيه الرئيس من الغنيمة .

قالَ الفرزدقُ :

فلمّا تَصافَنَّا الإداوةَ أجْهَشَتْ ... إليَّ غُضُونُ العَنْبَرِيِّ الجُراضِمِ[1]

عَلى ساعةٍ لَو أنَّ في القومِ حاتِمًا ... على جُودِه ضَنَّتْ بهِ نَفْسُ حاتِمِ[2]

وبذلكَ المذهبِ منَ الأَثَرةِ، مَدَح الشاعرُ كعبَ بنَ مَامةَ، حينَ آثرَ بنصيبِهِ رفيقَهُ النَّمَريَّ ، فقالَ :

ما كانَ مِنْ سُوقةٍ أَسْقَى علَى ظَمَإٍ ... خَمْرًا بماءٍ إذا ناجُودها بَرَدَا[3]

مِنَ ابنِ مامَةَ كَعْبٍ، ثُمَّ عَيَّ بِهِ ... زَوُّ المَنِيَّةِ ، إلاَّ حَرَّةً وَقَدَى[4]

أوْفَى عَلى الماءِ كعبٌ ، ثُم قِيلَ لهُ : ... رِدْ كعبُ ، إنَّكَ وَرَّادٌ ، فَمَا وَرَدَا

وفي المصافَنَةِ يقولُ الأسَديُّ :

كَأنَّ أَطِيطًا يا بنةَ القومِ لم يُنخْ ... قلائصَ يَحْكِيها الحَنِيُّ المُنَقَّحُ[5]

ولم يَسْقِ قومًا فارسيٌّ عَلَى الحَصَى ... صُبابَ الأَدَاوَى والمطِيّاتُ جُنَّحُ[6]

ويزعمونَ أنَّ الحصاةَ الَّتي إنْ غمرَها الماءُ في الإناءِ كانتْ نصيبَ أحدِهِمْ، تسمّى المَقْلَةَ. وهذا الحرفُ سمِعتُه مِنَ البغداديّينَ. ولم أسمعْه من أصحابِنَا. وقدْ برِئتْ إليكَ منهُ.

وقالَ ابن جَحْوَشٍ في المصافنةِ :

ولمَّا تَعَاوَزْنا الإداوةَ أَجْهَشَتْ ... إلى الماءِ نفسُ العَنْبَرِيِّ الجُراضِمِ

وآثرتُه لَمَّا رأيتُ الذي بهِ ... علَى النفسِ ، أخْشَى لاحقاتِ الملاوِمِ

فجاءَ بجُلْمودٍ لهُ مِثْلُ رأسِهِ ... ليشربَ حظَّ القومِ بينَ الصَّرائِمِ[7]

(صبرُ الأعرابيّ وتحملُه)

وقدْ يُصيبُ القومَ في باديتِهم ومواضعِهم، منَ الجَهْدِ ما لم يُسْمَعْ بهِ في أُمَّةٍ منَ الأمم، ولا في ناحيةٍ منَ النواحِي. وإنَّ أحدَهم ليجوعُ حتى يَشُدَّ على بطنِه الحجارةَ، وحتى يعتصِمَ بشَدَّةِ معاقِدَ الإزارِ، وينزعَ عمامتَه من رأسِه، فيشُدَّ بها بطنَه، وإنَّما عمامتُه تاجُهُ. والأعرابيُّ يجِدُ في رأسِهِ منَ البردِ إذَا كانَ حاسرًا ما لا يجدُه أحدٌ، لطولِ ملازمتِهِ العمامةَ، ولكثرةِ طيِّها وتضاعفِ أثنائها. ولربما اعتمَّ بعمامتينِ. ولربَّما كانتْ علَى قَلَنْسُوَةٍ حَدْرِيَّةٍ.

---

(١) الجراضم : الأكول .

(٢) ديوانه [٨٤١، ٨٤٢] وتقدم البيت الثاني بنفس رواية الديوان ، وهي : ∴ على ساعةٍ لو كان في القوم حاتمٌ ∴

(٣) السوقة : أوساط الناس ، والناجود : إناء الخمر .

(٤) زَوُّ المنية : أحداثها ، والبيتان لِعَامة الإياديّ أبي كعب ، كما في اللسان (زوى) .

(٥) أطيط : اسم رجل ، والقلائص : جمع قلوص ، وهي الشابة من الإبل . والحنى : القوس ، والمنقح ، أي : المسوّى .

(٦) الصباب : بقية الماء في الإناء ، والأداوي جمع إداوة وهي وعاء الماء ، وجنح جمع جانحة وهي الناقة البارکة إذا مالت على أحد شقيها ، والبيتان لعبد الله بن فضالة بن شريك الوالبي الأسديّ .

(٧) البيتان الأول والثالث للفرزدق في الكامل [١/ ٢٣٣] ، وفي ديوانه [٨٤١] مع خلاف في الرواية .

وقال مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ الليثيّ[1] :

سيروا فقدْ جَنَّ الظلامُ عليكُمُ ... فبِاسْتِ امرئٍ يرجُو القِرَى عندَ عاصِمِ
دُفِعْنَا إليهِ وَهُوَ كالذِّيخِ خَاطِيًا ... نَشُدُّ عَلَى أكْبَادِنَا بالعمائِمِ[2]

وقالَ الرَّاعِي في ذَلِكَ :

يُسَبُّ لِرَكْبٍ مِنْهُمُ مِنْ ورائِهِمْ ... فكلُّهُمُ أَمْسَى إلَى ضَوْئِها سَرَى
إلَى ضَوْءِ نارٍ يَشْتَوِي القدَّ أهْلُها ... وقدْ تُكْرَمُ الأضيافُ والقدُّ يُشْتَوَى
فلمَّا أناخُوا واشتكَيْنا إليهِمُ ... بَكَوْا وكِلاَ الخَصْمَيْنِ ممَّا بهِ بَكَى
بَكَى مُنْذِرٍ مِنْ أنْ يُضافَ ، وطارقٌ ... يَشُدُّ مِنَ الجوعِ الإزارَ علَى الحَشَا[3]

وممَّا يدلُّ علَى ما هُم فيهِ منَ الجَهْدِ ، وعلَى امتداحِهِم بالأَثَرةِ قولُ الغَنَويِّ[4]:

لقدْ عَلِمَتْ قيسُ بنُ عَيْلان أنَّنا ... نُضارٌ، وأنَّا حيثُ رُكِّبَ عودُها
إذَا الماءُ بعدَ اليومِ يُمْذَقُ بعضُهُ ... ببعضٍ ، ويُبْلَى شحُّ نفسٍ وجودُها
وأنَّا مَقَارٍ[5] حينَ يُبْتَكَرُ الغَضَى ... إذا الأَرضُ أَمْسَتْ وَهْيَ جَدْبٌ جُنُودُها

وقالَ في ذلكَ العُجَيْرِ السَّلُوليُّ :

مِنَ المُهْدياتِ الماءِ بالماءِ بَعْدَ ما ... رمَى بالمقَارِي كلَّ قارٍ ومُعْتِمِ[6]

وقالَ آخرُ في مثلِ هذَا :

لنَا إبلٌ يُزْوِينَ يومًا عِيالَنَا ... ثلاثٌ ، فإنْ يَكْثُرْنَ يومًا فأربعُ
تُمِدُّهُمُ بالماءِ لا مِنْ هوانِهِمْ ... ولكنْ إذَا مَا قلَّ شيءٌ يُوَسَّعُ[7]
علَى أنَّها يَغْشَى أولئكَ بيتَها ... علَى اللحمِ حتَّى يذهبَ الشرُّ أجْمَعُ

وقالَ أبو سَعيدٍ الخُدْرِيُّ : أخذتُ حَجَرًا فعصبتُهُ على بطني من الجوع، وأتيتُ النبيّ ﷺ أسأَله. فلمَّا سمِعتُه وهو يخطبُ « من يستعِفَّ يُعِفَّه الله، ومن يَسْتَعِنْ يُعِنْه اللهُ »[8] ، رجعتُ ولم أسأَلْهُ.

---

(١) مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف القرشي ، صحابي ، شجاع ، هاجر إلى الحبشة والمدينة ، شهد بدرًا واستشهد في أحد . كان يلقب بـ« مصعب الخير » ويقال : فيه وفي أصحابه نزلت الآية : ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ . الأعلام[٧/ ٢٤٨] .

(٢) الذِّيخ : الذئب الجريء ، وخاطيا ، أي : ماشيا ، وروايته في البيان : « خاظيًا » ، والخاظي : الغليظ الصلب . والبيتان في البيان والتبيين [٣/ ١٠٥] غير منسوبين .

(٣) ديوانه [٢ ، ٥] مع خلاف في الترتيب والرواية .

(٤) الغَنوى : هو طفيل بن عوف بن كعب من شعراء العصر الجاهلي من بني غني ومن قيس عيلان ، توفى نحو سنة ١٣ قبل الهجرة.

(٥) مقار : جمع مِقْري ومقراء للضيف ، وابتكار الغضى : أخذ باكورته وهو شجر تأكله الإبل ، والمقصود بجنود الأرض نباتها.

(٦) البيت في الحيوان [٥/ ٥٩٧] غير منسوب . وروايته :

من المُهْدَيات الماء بالماء بعدما ... رمى بالمقادي كلَّ قادٍ ومُعْتَمِ

(٧) البيتان في الحيوان [٥/ ٥٩٧] غير منسوب .

(٨) أخرجه البخاري في الزكاة . باب الصدقة إلا عن ظهر غنى [٣/ ٣٤٥] وباب الاستعفاف عن المسألة [٣/ ٣٩٢] وفي مواضع أخرى . ومسلم في الزكاة . باب فضل التعفف والصبر [١٢٤] وأبو داود والترمذي والنسائي والدارمي ومالك وأحمد.

قالَ أعرابيٌّ : جُعْتُ حتَّى سمِعتُ من مَسامِعي دَوِيًّا . فخرجتُ أُرِيغُ الصيدَ، فإذَا بمغارةٍ، وإذا هو جَرْوُ ذِئبٍ. فذبحتُه وأكلتُه، وادَّهَنْتُ واحتذَيتُ .

ولمَّا قدِمَ المُغِيرةُ القادِسيّةَ علَى سعدٍ بسبعينَ مِنَ الظَّهْرِ، وعندَ سعْدٍ ضيقٌ شديدٌ منَ الحالِ، نحرُوهَا وأكَلُوا لحومَها، وادَّهنُوا بشحومِهَا، واحتذَوْا جلودَها .

وذكَرَ الأَصْمَعيُّ عنْ عثمانَ الشَّحامِ، عنْ أَبِي رجاءٍ العُطارِديِّ، قالَ : لمَّا بلغنَا أنَّ النبيَّ ﷺ قد أخذَ في القتلِ ، هربنَا فاشتوينَا فَخذَ أرنبٍ دفِينًا، وألقينَا عليها جمالنَا. فلاَ أنسَى تلكَ الأُكلةَ .

وكانَ الأَصْمَعيُّ إذا حدَّثَ بهذَا الحديثِ قالَ : نِعْمَ الإدامُ الجوعُ، ونِعْمَ شِعارُ المسلمينَ التخفيفُ.

وذكَرُوا عنْ عبدِ الملكِ بن عُمَيْرٍ، عنْ رجلٍ منْ بني عُذْرةَ، قالَ : خرجْتُ زائرًا لأَخْوالٍ لي بهَجَرَ. فإذَا هُم في بَرْثٍ[1] أحمرَ بأقصَى هَجَرٍ، في طُلوعِ القَمَرِ. فذكَروا أنَّ أتانًا تعتادُ نخلةً، فترفع يديها، وتعطُو بِفيهَا، وتأخُذ الحُلقانَ[2] والمُنْسَبِتَةَ[3] والمُنَصَّفَةَ[4] والمَعْوَةَ[5] .

فتنكَّبتُ قوسِي ، وتقلَّدتُ جَفِيرِي[6]. فإذَا هِيَ قدْ أقبلتْ ، فرميتُها، فخرَّت لِفيهَا. فأدركتُ، فقوَّرتُ سُرَّتَها ومَعْرَفَتها[7] . فقدحْتُ نارِي، وجمعتُ حَطَبي، ثمَّ دفنتُها. ثم أدركني ما يُدرِكُ الشبابَ منَ النوم. فمَا استيقظتُ إلاَّ بحرِّ الشَّمسِ في ظهرِي. ثم كَشفتُ عنهَا. فإذَا لهَا غَطِيطٌ منَ الوَدَكِ[8] كتداعِي طَيِّئٍ وغُطَيْفٍ وغَطَفَانَ. ثُم قمتُ إلَى الرُّطبِ وقدْ ضربهُ بَرْدُ السحرِ. فجنيتُ المَعْوَةَ والحُلْقانَ. فجعلتُ أضغُ الشحمةَ بينَ الرطبتينِ، والرطبةَ بين الشحمتيْنِ، فأظُنُّ الشحمةَ سَمْنةً ثم سِلاءةً، وأحسَبُها منْ حلاوتِها شُهْدةً أحدُرُها من الطُّور.

وأنَا أتَّهم هذَا الحديثَ ، لأنَّ فيهِ ما لاَ يجوزُ أنْ يتكلَّمَ بِهِ عَرِيٌّ يعرفُ مذاهبَ العرب. وهُو منْ أحاديثِ الهَيْثَم.

(ماذَا يَأكُلُونَ)

وقالَ مَدِينيٌّ لأعرابيٍّ : أيَّ شيءٍ تَدَعُون، وأيَّ شيءٍ تأكلُونَ؟ قالَ : نأكلُ ما دبَّ ودَرِجَ، إلاَّ أمَّ حُبَيْنٍ[9]. فقالَ المَدِينيُّ: لِتَهْنِ أمَّ حُبَيْنٍ العافيةُ .

وقالَ الأَصْمَعيُّ : تعرَّقَ أعرابيٌّ عظمًا . فلمَّا أرادَ أنْ يُلقيهُ - ولهُ بنونَ ثلاثةٌ - قالَ لهُ أحدُهُم: أَعْطِنِيهِ. قالَ : وما تصنعُ به؟ قالَ : أتَعرَّقُهُ حتَّى لا تَجدَ فيه ذَرَّةً مَقِيلًا. قالَ: ما قلتَ شيئًا! قالَ الثَّانِي:

---

(١) البَرْثُ : الأرض اللينة .
(٢) الحلقان : البسر إذا قرب من الرطب .
(٣) المنسبتة : الرطبة جرى فيها كلها الإرطاب .
(٤) المنصفة : نصفها أحمر ونصفها أخضر .
(٥) المغوة : الرطب من البلح .
(٦) الجفير : المقصود جعبة السهام .
(٧) المعرفة : اللحم الذي ينبت عليه العرف .
(٨) الودك : الدسم .
(٩) حُبَيْن : دويبة على قدر الخنفساء .

أعْطِنيهِ. قالَ : وما تصنعُ بهِ ؟ قالَ أتَعَرَّقُه حتَّى لا تدري أَلِعامِهِ ذلكَ هُو أمْ للعامِ الذِي قبلَه. قالَ : ما قلتَ شيئًا:. قالَ الثالثُ: أعْطِنِيهِ. قالَ : وما تصنعُ به؟ قال أجعلُه مُخَّةَ إدامٍ[1] . قالَ : أنتَ لهُ !

وقالَ الآخرُ :

فإنَّك لم تُشْبِهْ لَقِيطًا وفِعْلَهُ ... وإنْ كنتَ أطعمتَ الأرُزَّ مع التَّمْرِ

وقالَ الآخرُ :

إذَا انغاضَ منهَا بعضُها لم تجدْ لهَا ... دَوِيًّا لما قد كانَ منهَا مُدَانيا

وإنْ حَاوَلوا أَنْ يَشْعَبُوهَا رأيتَها ... علَى الشَّعْبِ لا تَزْدَادُ إلاَّ تَدَاعِيَا

مُعَوَّذَةُ الإرْحالِ لم تُوفِ مَرْقَبًا ... ولم تُمْتَطِ الجُونَ الثلاثَ الأثافِيَا[2]

ولا اجْتَزَعَتْ منْ نحوِ مكَّة شُقَّةً ... إلينَا ولا جازتْ بهَا العيسُ واديَا[3]

ولكنَّها في أصلِهَا مَوْصِلِيَّةٌ ... مجاورةٌ فَيْضًا منَ البحرِ جاريَا

أتتْنَا تُزَجِّيها المجاذيفُ نحوَنا ... وتَعْقُبُ فيمَا بينَ ذاكَ المَرَادِيَا

فقلتُ : لمنْ هذِي القدورُ التي أرَى ... تَهِيلُ عليهَا الرِّيحُ تُرْبًا وسافيَا؟

فقالُوا : وهلْ يخفَى علَى كلِّ ناظرٍ ... قُدُورُ رقاشٍ ، إنْ تأمَّلَ رائيَا؟

فقلتُ : متَى باللَّخمِ عهدُ قُدُورِكُم؟ ... فقالُوا : إذَا ما لمْ يكنَّ عَواريَا

مِنَ أضْحَى إلَى الأضْحَى ، وإلاَّ فإنَّها ... تكونُ بِنَسْجِ العنكبوتِ كما هيَا

فلمَّا استبانَ الجَهدُ لِي في وجوهِهم ... وشكواهُمُ أدخلتُهمْ في عِياليَا

فكنتُ إذَا ما استشرفُونِيَ مُقْبِلًا ... أشارُوا جميعًا لَجَّةً وتداعيَا[4]

(صفةُ قدورهم وخصبُ باديتهم)

وممَّا قالُوا في صِفةِ قُدُورِهم وجِفانِهم وطعامِهم ممَّا أنَا كاتبُه لكَ. وهُم وإنْ كانُوا في بلادِ جَدْبٍ، فإنَّهم أحسنُ الناسِ حالًا في الخِصْبِ. فلاَ تظنَّنَّ أنَّ كلَّ ما يصفونَ به قُدورَهم وجِفانهم وثَريدَهم وحَيْسَهم باطلٌ . وحدَّثني الأصْمَعِيُّ قالَ : سألتُ المنْتَجِعَ بنَ نَبْهانَ عنْ خِصْبِ الباديَةِ، فقالَ : ربَّما رأيتَ الكلبَ يتخطَّى الخُلاصةَ - وهي له مُعْرِضةٌ - شِبَعًا .

وقال الأفْوَه الأوْديُّ[5] :

تَهْنَا لثعلبةَ بنِ قيسٍ جَفْنَةٌ ... يأوِي إليهَا في الشِّتاءِ الجُوَّعُ

---

(١) مخة إدام : يعني أضعه في ماء حتى يغلي فيمزج ما فيه من دسم .

(٢) الأثافيا : هي جمع أثفية وهي التي توضع عليها القدر للطبخ . (٣) العيس : كرائم الإبل .

(٤) الأبيات (دون الأخير) لمحمد بن يسير في عيون الأخبار [٣/ ٢٨٩ ، ٢٩٠] والبيت الثاني في الحيوان [٣/ ١٠٢] دون نسبة .

(٥) هو صُلاءة بن عمرو بن مالك من بني أزْد ومن اليمن . كان سيد قومه وقائدهم في حروبهم . وهو أحد حكماء الشعراء في عصره. توفى في العام الخمسين من الهجرة تقريبا .

ومَذانبٌ لا تُستعارُ وخَيمةٌ سوداءُ عَيبُ نَسيجِها لا يُرقَعُ
وكأنَّما فِيها المَذانبُ حَلْقَةٌ ودَمُ الدِّلاءِ على دُلُوجٍ يُنزَعُ

وقال مَعْنُ بنُ أوْسٍ[1]، وهُو يذكُر قِدْرَ سعيدِ بنِ العاصِ[2]، في بعضِ ما يمدحُهُ:

أخُو شَتَواتٍ لا تزالُ قُدورُه تُحَلُّ على أرجائها ثُم تُرْحَلُ[3]
إذَا ما امتطَاها الموقِدونَ رأيتَها لِوَشْكِ قِراهَا وَهْيَ بالجَزْلِ تُشْعَلُ
سمعتَ لها لَغْطًا إذَا ما تَغَطْمَطَتْ كهَدْرِ الجمالِ رُزِّما حينَ تُجْفَلُ
ترَى البازِلَ الكَوْمَاءَ فيها بأسرِها مقبَّضَةً في قَعْرِها ما تَجَلْجَلُ[4]
كأنَّ الكُهولَ الشُّهْبَ في حُجُراتِها تَغَطْرَشُ في تيَّارها حين يَحْفِلُ[5]
إذَا التطمتْ أمواجُها فكأنَّها غوائبُ دُهْمٍ في المَحَلَّةِ قُبَّلُ
إذا احتدمتْ أمواجُها فكأنَّما يزعزعُها منْ شدَّةِ الغَلْى أفْكَلُ[6]
تظَلُّ رواسيهَا رُكودًا مُقيمةً لمنْ نابه فيهَا معاشٌ ومأكَلُ[7]

وضافَ الفرزدقُ أبا السَحْماءِ سُحَيْمَ بنَ عامرٍ، أحدَ بني عَمْرِو بن مَرْثَد، فأحْمَدَهُ، وذكَر في إحمادِهِ قِدْرَه، فقالَ:

سألنَا عنْ أَبِي السَّحْماء حتَّى أتينَا خَيْرَ مطروقٍ لِسَارِي
فقلنَا: يا أبَا السَّحْماءِ إنَّا وَجَدْنَا الأَزْدَ أبْعَدَ منَ نِزارِ
فقامَ يَجُرُّ مِنْ عَجَلٍ إلينَا أسَابِيَّ العِناسِ معَ الإزارِ[8]
وقامَ إلَى سُلافةِ مُسْلَحِبٍّ رَثِيمِ الأنفِ مَربوبٍ بِقَارِ[9]
تدورُ عليهمُ والقِدْرُ تَغْلِي بأبيضَ منْ سَدِيفِ الكُومِ وارِي[10]
كأنَّ تطلُّعَ التَّرعيبِ فيها عَذارَى يطَّلِعْنَ إلَى عَذارِي[11]

---

(١) مَعْن بن أوْس بن نصر بن زياد المزني: شاعر فحل، من مخضرمي الجاهلية والإسلام. له مدائح في جماعة من الصحابة. رحل إلى الشام والبصرة. وكف بصره في أواخر أيامه. له أخبار مع عمر بن الخطاب وكان معاوية يفضله ويقربه منه. الأعلام [٧/ ٢٧٣].

(٢) سَعِيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية، الأموي القرشي: صحابي، من الأمراء الولاة الفاتحين. ربي في حجر عمر بن الخطاب. وولاه عثمان الكوفة وهو شاب ثم ولاه معاوية المدينة. كان قويا، سخيًا، فصيحًا. الأعلام [٣/ ٩٦].

(٣) أخوشتوات: يطعم الناس في الشتاء فهو كريم لأن الشتاء زمن الجدب.

(٤) الكوماء: الناقة ذات السنام الضخم. وتجلجل: تتحرك لسمنها وضخامتها. (٥) يحفل: يجتمع ويعظم.

(٦) الأفكل: الرعدة. يقال: أخذه أفكل: ارتعد من برد أو خوف.

(٧) رواسيها: المقصود الجمال الراسية في قعر القدر حتى تؤكل.

(٨) العناس: النوق الصلبة، والأسابي: طرائق الدم يعني قام أبو السحماء على عجل وسرعة يجر مع إزاره طرائق الدماء من نحر هذه النوق لأضيافه.

(٩) مسلحب: منبطح، ورثيم الأنف: يقطر منه الدم لكسره، ومربوب أي مدهون بالقار.

(١٠) السديف: شحم السنام، والواري: السمين.

(١١) الترعيب: جمع ترعيبة، وهي القطعة من شحم السنام وهي تشبه العذارى في تطلع بعضها إلى بعض. والأبيات في ديوانه [٢٤٨] مع خلاف في رواية بعض الكلمات.

وقالَ الكُمَيْتُ[1] في صفَةِ القِدْرِ :

إوَزٌّ تُـغَـمَّـسُ فـي لُـجَّـةٍ تَـغيـبُ مِـرارًا وتَـطْـفُـو مِـرارَا
كـأنَّ الـغُـطـامِـطَ مِـنْ غَـلْـيِـهـا أراجـيـزُ أسْـلَـمَ تَـهْـجُـو غِـفـارَا[2]

(تعييرهُم بالقدُورِ)

وأمَّا ما ذكروا من صفات القدور من تَعْييرِ بعضِهم بعضًا ، فهو كما أنشدني محمدُ بنُ يَسير، قالَ : لمَّا قالَ الأوَّلُ :

إنَّ لـنـا قِـدْرًا ذراعـانِ عـرضُـهـا ولـلـطـولِ مِـنْـهـا أذْرُعٌ وشِـبـارُ

قالَ الآخرُ : وما هذِهِ ؟ أخزَى اللهُ هذه قِدْرًا: ! ولكنِّي أقولُ :

بَـوّأتُ قِـدْري لِـلْـوَرَى فـوضـعـتُـهـا بـرابـيـةٍ مِـنْ بـيـن مِـيـثٍ وأجْـرَعِ[3]
جعلتُ لها هَضْبَ الرِّجام وَطِخْفَةً وغَـوْلًا أثـافِـي دونَـهـا لـم تُـنَـزَّعِ
بـقِـدْرٍ كـأنَّ الـلـيـلَ شِـحْـنَـةُ قَـعْـرِهـا تـرَى الـفـيـلَ فـيـهَـا طـافـيًـا لـم يُـقَـطَّـعِ
يُـعَـجَّـلُ لـلأضـيـافِ وارِي سَـدِيـفِـهـا ومَـنْ يـأتِـهـا مِـنْ سـائـرِ الـنـاسِ يُـشْـبَـعِ

قالَ أبو عُبَيْدَةَ : ولمَّا قالَ الفرزدقُ :

وقِـدْرٍ كـحَـيْـزُومِ الـنَّـعـامـةِ أُحْـمِـشَـتْ بأجْذَالِ خُشْبٍ زال عنها هَشِيمُها[4]

قالَ مَيْسَرَةُ أبو الدَّرْدَاء : وما حَيزومُ النَّعامةِ؟ والله ما تُشْبِعُ هذهِ الفرزدق. ولكنِّي أقولُ:

وقِدْرٍ كجوفِ الليلِ أحْمَشْتُ غَلْيَها تَرى الفيلَ فيها طافيًا لم يُفَصَّلِ[5]

وقالَ عبدُ الله بنُ الزُّبيرِ[6] يمدحُ أسماءَ بن خارجةَ :

أَلَـمْ تَـرَ أنَّ الـمَـجْـدَ أرْسَـلَ يَـبْـتَـغِـي حَـلِـيـفَ صَـفـاءٍ قـابـلًا لا يُـزايـلُـهْ
تَـخَـيَّـر أسـمـاءَ بـنَ حِـصْـنٍ فَـبُـطِّـنَـتْ بِـفِـعْـلِ الـعُـلاَ أيْـمـانُـه وشَـمـائِـلُـهْ[7]

وممَّا يجوزُ في هذَا البابِ، وإنْ لم يكنْ فيهِ صفةُ قِدْرٍ ، قولُ الفرزدقِ في العُذافِرِ بنِ زيْد ، أحدِ

---

(١) الكميت بن زيد بن خنيس الأسدي . شاعر الهاشميين من أهل الكوفة . كان عالما بآداب العرب ولغاتها وأخبارها . كان فقيهًا وفارسًا شجاعًا . توفى سنة ١٢٦ هـ .

(٢) الغطامط : صوت الغليان . والبيت الثاني في الكامل [٢/ ١٦٠] وعيون الأخبار [٣/ ٢٨٨] والبيان والتبيين [٢/ ٢٢٤] ، والأغاني [١/ ٣٦٠] .

(٣) الميث : جمع ميثاء ، وهي الرملة السهلة ، والأجرع : الأرض طيبة المنبت .

(٤) الحيزوم : الصدر ، وأحمشت : أكثر الوقود لها ، والأجذال : أصول الشجر . ولم أجده في ديوانه وهو في الحيوان [٤/ ٣٣٢] للفرزدق .

(٥) عيون الأخبار [٣/ ٢٨٨] .

(٦) عبد الله بن الزُبير بن الأشيم الأسدي . شاعر بليغ من شعراء بني أمية ومن شيعتهم ، له أخبار كثيرة في كتب التاريخ والأدب.

(٧) البيتان في شعر عبد الله بن الزُبير [١٢٠] . جمع وتحقيق : د. يحيى الجبوري .

بني تَيْم اللاَّتِ بن ثَعْلَبَةَ :

لَعَمْرُكَ ما الأرزاقُ يومَ اكْتِيالِها ... بأكْثَرَ خَيْرًا من خِوانِ العُذَافِرِ
ولو ضَافه الدَّجَّالُ يَلْتَمِسُ القِرَى ... وحَلَّ علَى خَبَّازِه بالعَساكِرِ
بِعِدَّةِ يأجُوجٍ ومأجُوجَ جُوَّعًا ... لأَشْبَعَهُمْ شَهْرًا غَدَاءُ العُذافِرِ[1]

وقالَ ابنُ عَبْدَلٍ[2] في بِشْرِ بنِ مَرْوانَ بنِ الحَكَمِ :

ولوْ شاءَ بِشْرٌ كانَ مِنْ دونِ بابِهِ ... طَماطِمُ سودٌ أو صَقَالبةٌ حُمْرُ[3]
ولكنَّ بِشْرًا أَسْهَلَ البابَ لِلّتِي ... يكونُ لِبشْرٍ عندَها الحمدُ والأجرُ
بعيدُ مَرادِ العينِ ما ردَّ طَرْفَهُ ... حِذارَ الغَواشِي بابُ دارٍ ولا سِتْرُ[4]

وقالُوا في مناقضَاتِ أشعارِهم في القُدورِ ، قالَ الرَّقَاشيُّ :

لنَا منْ عطاءِ اللهِ دَهْماءُ جَوْنةٌ[5] ... تناوَلُ بعْدَ الأقربينَ الأقَاصيَا
جعلنَا أَلالًا[6] والرِّجَامَ وطِخْفَةً ... لهَا ، فاستقلَّت فوقهنَّ أثافِيَا
مُؤدِّيةٌ عنَّا حقوقَ محمَّدٍ ... إذَا ما أتانَا بائسَ الحالِ طاويَا
أتَى ابنُ يسيرٍ كي يُنَفِّسَ كَرْبَهُ ... إذَا لمْ يَرُحْ وافَى معَ الصبحِ غادِيا[7]

فأجابهُ ابنُ يسيرٍ فقالَ :

وثَرماءَ ثَلْمَاءِ النواحِي ولا يَرَى ... بهَا أحدٌ عَيْبًا سِوَى ذاكَ بادِيَا[8]
يُنَادِي ببعضٍ بعضُهم عند طَلْعتِي ... ألاَ أبْشِرُوا هذَا اليسِيريُّ جاثِيَا

وقالَ ابنُ يَسيرٍ في ذلكَ :

قِدرُ الرَّقاشيِّ لم تُنْقَرْ بمنقارِ ... مثلَ القدورِ ولم تُفْتَضَّ مِن غَارِ
لكنّ قِدْرَ أبي حَفْصٍ إذا نُسِبَتْ ... يومًا رَبيبةُ آجامٍ وأنهارِ

فاعترضَ بينهُما أبو نُوَاسٍ الحسنُ بنُ هانئٍ الحَكَميُّ ، يذكُر قِدْرَ الرَقاشيِّ بالهِجاءِ أيضًا، فقالَ :

ودَهْماءَ تُشْفِيها رَقاشٌ إذَا شَتَتْ ... مركَّبةِ الآذانِ أمَّ عِيالِ[9]
يَغَصُّ بحَيْزومِ البعوضَةِ صدرُها ... وتُنزِلُها عفوًا بغيرِ جِعالِ

---

(١) ديوانه [٣٩٦] .
(٢) الحكم بن عبدل بن جبلة الأسدي . من شعراء الدولة الأموية المجيدين . كوفي المنشأ . وكان هجاء خبيث اللسان . توفى سنة ١٠٠ هـ .
(٣) الطماطم : جمع طِمطم ومن في لسانه عجمة ، والمعنى : لو كان بشر بخيلا لأتى بأعوان من الأعاجم لمنع الناس عنه .
(٤) عيون الأخبار [١/ ١٦١] لبعض الشعراء .
(٥) دهماء جونة : قِدر سوداء .
(٦) الألال : اسم جبل بعرفات .
(٧) عيون الأخبار [١/ ٢٨٨، ٢٨٩] للرقاشي .
(٨) الثلماء : من كسرت ثنيتها شبه بها القدر التي تكسرت أطرافها من كثرة الاستعمال وهذا من الكرم .
(٩) وصف القدر بأنها أم عيال لأنها تقوتهم .

ولوْ جئتَها مَلأَى عَبيطًا مُجزَّلًا[1] لأخرجتَ ما فيها بعودِ خلالِ
هِيَ القِدرُ قدرُ الشيخِ بكرِ بنِ وائلٍ ربيعِ اليتامَى عامَ كلِّ هُزَالِ[2]

وقالَ فيهَا أيضًا :

رأيتُ قُدُورَ النَّاسِ سودًا منَ الصَّلَى وقِدْرَ الرَّقاشِيِّينَ زَهْراءَ كالبَدْرِ
ولوْ جئتَها مَلأَى عَبيطًا مُجزَّلًا لأخرجتَ ما فيهَا علَى طَرَفِ الظُّفر
يُثَبِّتُها للمعتفِي بفنائِهِمْ ثلاثٌ كحظِّ الثاءِ من نُقَطِ الحِبْر[3]
تَبَيَّنُ في مِحراثِهَا أنَّ عُودَه سليمٌ صحيحٌ لم يُصِبْهُ أذَى الجمْرِ
تَروحُ علَى حيِّ الربابِ ودارِمٍ وسعدٍ وتعروها قَراضِبةُ الفِزْرِ[4]
وللحيِّ عمرٍو نَفْحَةٌ من سِجالِها وتَغْلِبَ والبيضِ اللَّهامِيم من بَكْرِ[5]
إذَا ما تنادَوْا بالرحيلِ سعَى بها أمامَهُمُ الحَوْليُّ من وَلَد الذَّرِّ[6]

وقالَ بعضُ التَّمِيميِّين وهُو يهجُو ابنَ جَبَّارٍ :

لَو انَّ قِدْرًا بَكَتْ مِن طُولِ ما حُبِسَتْ علَى الحُفُوفِ بَكَتْ قِدْرُ ابنِ جَبَّارِ
ما مَسَّها دَسَمٌ مُذْ فُضَّ مَعْدِنُها ولا رَأَتْ بَعْدَ نارِ القَيْنِ مِنْ نارِ[7]

(الكارِهُونَ لآلِ النبيّ وأصحابِهِ)

والشُّعُوبيَّةُ والآزادمرديَّة[8]، المبغِضونَ لآلِ النبيِّ ﷺ وأصحابِهِ ممَّن فتحَ الفُتوحَ، وقتَل المجوسَ، وجاءَ بالإسلام، تَزبدُ في خشونةِ عيشِهم، وخُشونةِ ملبسهم، وتَنْقُصُ منْ نعيمِهم، ورفَاغَةِ عيشِهم. وهُم أحسنُ الأممِ حالًا معَ الغَيْثِ، وأسوئِهم حالًا إذَا خَفَّتِ السحابُ . حتَّى ربَّما طَبَّقَ الغيثُ الأرضَ بالكَلأِ والماءِ. فعندَ ذلكَ يقولُ المُصْرِمُ[9] والمُقْترُ : مَرْعًى ولا أُكُولَة، وَعُشْبٌ ولا بعير، وكَلاَ تَيْجَعُ لهُ كبِدُ المُصْرِمِ .

ولذلكَ قالَ شاعرُهم :

فَجَنَّبَكَ الجيوشَ أبا زُنَيْبٍ وجادَ عَلى مسارِحِكَ السَّحابُ[10]

---

(١) عبيطًا : لحم طريّ غير ناضج والمجزل المقطع .
(٢) عيون الأخبار [٣/ ٢٩٠] . (٣) المعتفي : طالب المعروف والاستضافة ، وقوله كحظ الثاء أي كنقط الثاء في صغرها .
(٤) القراضبة : اللصوص والفقراء ، والفزرُ : يريد القبيلة التي لقب سعد بن زيد منها بالفزر .
(٥) النفحة : العطية ، والسجال : جمع سجل وهو الدلو المملوءة العظيمة واللهاميم : جمع لُهموم وهو الجواد الكريم .
(٦) عيون الأخبار [٣/ ٢٩٠، ٢٩١] .
(٧) للفرزدق في عيون الأخبار [٣/ ٢٨٧، ٢٨٨] ، وفي ديوانه [٢/ ٤٠٦] .
(٨) الآزادمردية : طائفة لها رأي الشعوبية وهو بغض العرب وأنه لا تفضيل لهم عن العجم بل هؤلاء أشد تعصبًا للفرس .
(٩) المُصْرِم : رجل سيئ الحال كثير العيال . (١٠) اللسان (زنب) ، والبيان والتبيين [٢/ ١٦٢] ورواية اللسان : فَجُنِّبَتَ .

(مَطعمُهم ومشربُهُم)

وإذَا نظرتَ في أشعارِهم ، علِمتَ أنَّهم قدْ أكلُوا الطيِّبَ وعرفُوه ، لأنَّ الناعِمَ منَ الطَّعامِ لا يكونُ إلاَّ عندَ أهلِ الثَّرَاءِ وأصحابِ العيشِ. فقالَ زِيادُ بنُ فيَّاضٍ يذكرُ الدَّرْمَكَ، وهو الحُوّارَى :

ولاَقتْ فتَى قيسِ بنِ عَيْلانَ ماجدًا ... إذَا الحربُ هرّتها الكُماةُ الفوارِسُ
فقامَ إلى البَرْكِ الهِجانِ بسيفِهِ ... وطارتْ حِذارَ السيفِ دُهْمٌ قَنَاعِسُ[1]
فصادفَ حدُّ السيفِ قَبَّاءَ جَلْعَدًا ... فكاسَتْ ، وفيها ذُو غِرارَيْن نَائِسُ[2]
فأطعمَها شَحْمًا ولحمًا وَدَرْمَكًا ... ولم يثْنِنَا عنهُ النَّسيمُ الحَنَادِسُ[3]

وقالَ :

تظلُّ في دَرْمَكٍ وفاكهةٍ ... وفي شِواءٍ ما شِئْتَ أو مَرَقَهْ

وقالَ جَريرٌ :

تُكَلِّفُنِي معيشةَ آلِ زَيْدٍ ... ومَنْ لي بالمُرَقَّقِ والصِّنَابِ[4]

وقالَ النَّمِرُ بنُ تَوْلَبٍ :

لهَا ما تَشْتَهِي عَسَلٌ مُصَفًّى ... وإنْ شاءتْ فَحُوَّارَى بِسَمْنِ[5]

ومنْ أشرفِ ما عرفُوه مِنَ الطعامِ - ولم يُطْعِم الناسَ أحدٌ منهُم ذلكَ الطعامَ، إلاَّ عبدُ اللهِ بنُ جُدْعانَ[6] - وهُو الفالوذقُ . مدحَهُ بذلكَ أُميَّةُ بنُ أبي الصَّلْتِ، فقالَ:

إلَى رُدُحٍ مِنَ الشِّيزَى عليهَا ... لُبابُ البُرِّ يُلْبَكُ بالشِّهادِ[7]

ولهُم الثريدُ . وهُو في أشرافِهِم عامٌّ . وغَلبَ علَى هاشِمٍ حينَ هشَم الخبزَ لقومِهِ. وقد مُدِحَ بِهِ في شعرٍ مشهُورٍ، وهُو قولُه :

عَمْرُو العُلاَ هَشَم الثَّريدَ لِقَوْمِهِ ... ورجالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ[8]

ومنَ الطَّعامِ الممدوحِ الحَيْسُ. وتزعُم مَخْزومٌ أنَّ أَوَّلَ منْ حاسَ الحَيْسَ سُوَيْدُ بنُ هَرَمِيّ.

وقال الشاعرُ :

---

(١) القَنَاعِس : الطوال . (٢) نَائس : متدل متحرك .
(٣) الحنادس : الليل الشديد الظلمة .
(٤) المرقق : الخبز المرقق ، والصناب : صباغ يتخذ من الزبيب والخردل . والبيت في ديوانه [٢/ ٨١٢] .
(٥) شعر النمر بن تولب [١١٦] .
(٦) عبد الله بن جُدْعَان التيمي القرشي : أحد الأجواد المشهورين في الجاهلية . أدرك النبي ﷺ قبل النبوة . وكانت له جفنة يأكل منها الطعام القائم والراكب ، فوقع فيها صبي ، فغرق . له أخبار كثيرة أورد الأصفهاني وغيره بعضها متفرقة وسماه اليعقوبي بين حكام العرب في الجاهلية . الأعلام [٤/ ٧٦] .
(٧) ديوانه [ص ٢٧] .
(٨) مختلف في نسبته ، انظر اللسان (سنت ، هشم) ، والسيرة النبوية لابن هشام [١/ ١٤٤] .

وإذا تكونُ شديدةٌ أُدْعَى لها ... وإذا يُحاسُ الحَيْسُ يُدْعَى جُنْدُبُ[1]

والخبزُ عندهُم ممدوحٌ . وكانَ عبدُ الله بنُ حَبيبٍ العَنْبَرِيُّ أحدُ بني سَمُرَةَ، يُقالُ له آكلُ الخبزِ؛ لأَنَّه كانَ لا يأكلُ التَّمر، ولا يرغبُ في اللبنِ . وكانَ سيِّدَ بني العَنْبَرِ في زمانِه . وهُم إذَا فَخَروا قالُوا : منَّا آكلُ الخبزِ ، ومنَّا مجِيرُ الطَّيرِ ، يعني ثَوْبَ بنَ شَحْمَةَ العَنْبَرِيَّ .

وهُم يقدِّمونَ اللحمَ على التمرِ، ألاَ تراهُ يقولُ :

قَرَتْني عُبَيْدٌ تَمْرَها وقَرَيْتُها ... سَنامَ مُصَرَّةٍ قليلٍ رُكوبُها

فهل يَسْتوِي شَحْمُ السَّنامِ إذَا شَتا ... وتمرُّ جُواثَي حينَ يُلْقَى عَسِيبُها[2]

وليسَ يكونُ فوقَ عَقْرِ الإبلِ وإطْعامِ السَّنامِ شيءٌ . والعَقْرُ هو النَّجْدَةُ ، واللبنُ هو الرِّسْلُ[3] .

قالَ الهُذَلِيُّ :

لو أَنَّ عِنْدِي مِنْ قُرَيْمٍ رَجْلاً ... لَمَنَعُونِي نَجْدَةً ورِسْلاَ[4]

وقالَ الهُذَلِيُّ : * ألاَ إنَّ خَيْرَ الناسِ رِسْلاً ونَجْدَةً[5] *

وقال المَرّارُ بنُ سعيدٍ الفقْعسِيُّ :

لهم إبلٌ لا مِنْ دياتٍ ولم تَكُنْ ... مُهورًا ولا مِنْ مَكْسَبٍ غيرِ طائلِ

ولكنْ حماهَا مِنْ شَمَاطِيطِ غارةٍ ... خِلاَلَ العَوَالِي فارسٌ غيرُ مائِلِ[6]

مُخَيَّسَةٌ فِي كلِّ رِسْلٍ ونجدةٍ ... ومعرُوفةٌ ألوانُها فِي المعَاقِلِ[7]

وقدْ وصفُوا الثَّريدَ ، فقالَ الراعِي :

فَباتتْ تَعُدُّ النَّجْمَ في مُسْتَحِيرةٍ ... سَريعٍ علَى أيدِي الرِّجالِ جُمودُها[8]

وقال آخرُ :

ثَريدٌ كأَنَّ السَّمْنَ في حُجُراتِهِ ... نُجومُ الثُّريَّا أو عيونُ الضَّياوِنِ[9]

---

(١) البيت لِزُرافة الباهلي ، وقيل : لِهُنَيّ بن أَخْمَر الكِناني . والحَيْس : الأَقِط يُخلط بالتمر والسَّمْن - يحاس : يخلط . [اللسان (حيس)] .

(٢) جُوَاثي : اسمُ حِصْن بالبحرين . (٣) الرِّسْل : هو الخصب أي أن اللبن يكون في زمن الخصب لكثرة المرعى .

(٤) في شرح أشعار الهذليين [١/ ٢٨٢] لِصَخْر الغَيّ الهُذَلِيّ ، والرواية فيه :

لَوْ أَنَّ حَوْلِي مِن قُرَيْمٍ رَجْلاً ... بِيضَ الوجُوهِ يَحْمِلون النُّبْلاَ

لَمَنَعُونِي نَجْدَةً أَوْ رِسْلاَ ... سُفْعَ الخُدودِ لم يكونوا عُزْلاَ

وشرحه السُّكَّرِيّ ، فقال : الرِّسْل : اللَّبن - قريم : من هذيل - الرَّجْل : الرُّجَّالة - العُزْل : الذين لا سلاحَ معهم .

(٥) هو لربيعة بن الجَحْدر الهذليّ ، وعجزه : بِعَجْلاَنَ قد خَفَّتْ لَدَيْهِ الأَكارِسُ .

عجلان : موضع - الأكارس : الجماعات من الناس ، كانوا معه فخَفُّوا لما قُتل . [شرح أشعار الهذليين ٢ / ٦٤٢] .

(٦) الشماطيط : الخيل المتفرقة أرسالا . (٧) المخيسة : المذللة المروضة ، والمعاقل : جمع معقلة ، وهي دية المقتول .

(٨) ديوانه [٩٢] .

(٩) الضياون : مفردها ضَيْوَن ، وهو السِّنَّوْر الذَّكر ، وهو حيوان أليف من خير مآكله الفأر . والبيت في اللسان (ضون) .

وقالَ ابنُ هَرْمَة[1] :

إلَـى أنْ أتَـاهـم بِـشِـيـزِيَّـةٍ تُـعَـدُّ كُـواكِـبُـهـا الـشُّـبَّـكُ[2]

وقالَ كاملُ بنُ عِكْرِمَةَ :

فـقـرَّبَ بـيـنَـهُـم خـبـزًا رَكـودًا كساهَا الشَّحْمَ ينهمِرُ انهِمَارَا[3]
يَـدُفُّ بـهَـا غـلامـاهُ جـمـيـعًـا تـردُّهـمـا إلَـى الأرضِ انـهـصَـارا
فـأصـبَـحَ سَـوْرُهـم فـيـهَـا وعـلْـمِـي لـو أنَّ الـعـلـمَ صـنَّـفـهـا شِـيَـارا[4]

فهذَا في صفةِ الثريدِ .

وقالَ بِشرُ بنُ أبِي خازِمٍ :

تَـرَى وَدَكَ الـسَّـدِيـفِ عـلَـى لِـحـاهُـمْ كَـلَـوْنِ الـرِّارِ لَـبَّـدَهُ الـصَّـقِـيـعُ[5]

وقالَ الآخَرُ :

جلا الأَذْفَرُ الأحْوَى مِن المِسْكِ فَرْقَهُ وطِـيـبُ الـدِّهـانِ رأسَـهُ فَـهْـوَ أنْـزَعُ
إذَا الـنَّـفَـرُ الـسُّـودُ الـيـمـانُـونَ حاولُـوا لـه حَـوْكَ بُـرْدَيْـهِ أرقُّـوا وأوْسَـعُـوا

وقالَ الزُّبَيْرُ بنُ عبدِ المطَّلِبِ :

فـإنَّـا قـدْ خُـلِـقْـنَـا إذْ خُـلِـقْـنَـا لـنَـا الـحِـبَـرَاتُ والـمِـسْـكُ الـفَـتِـيـتُ
ولـولاَ الـحُـمْـسُ[6] لـم يَـلْـبَـسْ رِجـالٌ ثـيـابًـا غُـرَّةً حـتَّـى يـمُـوتُـوا
ثـيـابُـهـمُ شِـمـالٌ أوْ عَـبـاءٌ بـهَـا دَنَـسٌ كـمـا دَنِـسَ الـحَـمِـيـتُ

فمِيَّز - كما ترَى - بين لباسِ الأشرافِ وأهلِ الثروةِ وغيرِهم.

وقالَ الأَعْشَى :

الـمُـشْـرِفُ الـعَـوْدُ فـأكْـنـافُـهُ مـا بـيـنَ حُـمْـرانَ فَـيَـنْـصُـوبِ[7]
خَـيْـرٌ لـهَـا إنْ خَـشِـيَـتْ جَـحْـرةً مِـنْ ربِّـهـا زَيْـدِ بـنِ أيُّـوبِ
مُـتَّـكِـئًـا تُـقْـرَعُ أبـوابُـهُ يَـسْـعَـى عـلـيـهِ الـعـبـدُ بـالـكُـوبِ[8]

---

(١) إبراهيم بن علي بن هرمة الهذلي القرشي . شاعر مجيد . مات في عهد الرشيد سنة ١٥٢ هـ .
(٢) الشيزية : نسبة إلى الشيز ، وهو الآبنوس .
(٣) ركودا : جفنة ملأى .
(٤) سورهم : كرام الإبل . والشيار : الحسان من الإبل السمينة .
(٥) الرار : الذائب من المخ - السديف : قطع السّنام - والصقيع : الجليد . والبيت في ديوانه [١٣٤] برواية : « كلون الرّاء . . » والرّاء : شجر له زهرة بيضاء لينة كأنها قطن .
(٦) الحُمْس : لقب قريش وكنانة ومن تابعهم من الجاهلية لإعتصامهم بالحمساء وهي الكعبة .
(٧) العود : المسن من الإبل ، وحمران وينصوب : موضعان . (٨) الصبح المنير في شعر أبي بصير [٢٣٧] .

وقالَ أبو الصَّلْتِ بنُ رَبيعَةَ :

اِشْرَبْ هنيئًا عليكَ التَّاجُ مرتَفِقًا ... في رَأْسِ غُمْدانَ دارًا منكَ مِحْلالاً[1]

وليسَ هذَا مِنْ بابِ الإفْراطِ . بابُ الإفراطِ كقول جِرَانِ العَوْد ، حين وصف نفسه وعشيقَتَه فقالَ :

فأصْبَحَ في حيثُ التقينَا غُنَيْمَةً ... سِوارٌ وخَلْخَالٌ ومِرْطٌ وَمُطْرَفُ

ومنقطِعاتٌ منْ عُقودٍ تركْنَها ... كجمرِ الغَضَى في بعضِ مَا تَتَخَطْرَفُ[2]

ومنْ ذلكَ قولُ عَدِيِّ بنِ زَيْدٍ[3] :

يا لُبَيْنَي أوْقِدِي النَّارَا ... إنَّ مَنْ تَهْوَيْنَ قَدْ حارَا

رُبَّ نارٍ بِتُّ أَرْقُبُها ... تَقْضِم الهِنْدِيَّ والغَارَا[4]

وقالَ الآخرُ :

أرَى في الهَوى نارًا لظبيةَ أُوقِدَتْ ... يُشَبُّ وَيُذْكَى بَعْدَ وَهْنٍ وُقُودُها

تُشَبُّ بِعِيدَانِ اليَلَنْجُوج مَوْهِنًا ... وبالرَّنْدِ أحيانًا ، فذاكَ وَقُودُها

(الصنفُ الآخر المذمومُ)

قد ذكرنا الطعام الممدوحَ ما هو ، وذكرنا أحد صِنْفَيِ الطعامِ المذمومِ .

والصنفُ الآخرُ الخزِيرةُ[5] ، التي تعابُ بهَا مُجاشِعُ بنُ درامٍ ، وكنحوِ السَّخِينَةِ التي تُعابُ بها قُرَيْشٌ .

قالَ خِداشُ بنُ زُهَيْرٍ :

يا شَدَّةً ما شَدَدْنَا غيرَ كاذبةٍ ... عَلى سَخِينَةَ لولا اللَّيْلُ والحَرَمُ[6]

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ همَّامٍ :

إذًا لضربْتُهُمْ حتَّى يعودُوا ... بمكَّةَ يَلْعَقُونَ بهَا السَّخِينَا[7]

وقالَ جَرِيرٌ :

وُضِعَ الخَزِيرُ فَقيل : أينَ مُجاشِعٌ؟ ... فَشَحَا جَحافلَه هِجَفٌ هِبْلَعُ[8]

---

(١) مختلف في نسبته . انظر اللسان (غمد، رفق) ، والسيرة النبوية [١/ ٦٨] .

(٢) ديوانه [٢٤] ، برواية : « غُدَيَّةً » بدلا من « غنيمة » ، و« مُفَوَّف » بدلا من « مطْرَف » ، « يُتَخَطْرَفُ » بدلا من « تَتَخَطْرَفُ » .

(٣) عَدِيّ بن زَيْد بن حَمّاد بن زيد العِبادي التميمي : شاعر ، من دهاة الجاهليين . كان قرويًا ، من أهل الحيرة ، فصيحًا ، يحسن العربية والفارسية والرمي بالنشاب ، وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى . اتخذه كسرى ترجمانًا له . الأعلام [٤/ ٣٢٠] .

(٤) ديوانه [١٠٠] .

(٥) الخزيرة : المرقة . (٦) شعر خداش بن زهير [ص٩٣] صنعة : د. يحيى الجبوري . (٧) البيان والتبيين [٣/ ١٨، ١٩] .

(٨) الهجف : الجافي الثقيل لا غناء عنده ، والهبلع : العظيم اللقم الأكول . والبيت في ديوانه [٢/ ٩١٣] .

والخَزيرُ لم يكنْ منْ طعامِهم. ولهُ حديثٌ . والسَّخينة[1] كانتْ من طعامِ قُرَيْشٍ.

وتُهجَى الأنصَارُ وعبدُ القَيْسِ وعُذْرَةُ، وكلُّ منْ كان يَقْرَبُ النخلَ - بأكِلْ التَّمرِ. فقالَ الفرزدقُ :

[و] لَسْتُ بِسَعْدِيٍّ عَلى فِيهِ حِبْرَةٌ ولَسْتُ بِعَبْدِيٍّ حَقِيبَتُه التَّمْرُ[2]

وتُهجَى أَسَدٌ بأكلِ الكلابِ ، وبأكلِ لحومِ النَّاس. والعربُ إذَا وجدتْ رجلًا منَ القبيلَةِ قدْ أتَى قبيحًا، ألزمتْ ذلِكَ القبيلةَ كلَّها. كما تُمدحُ القبيلةُ بفعلٍ جميلٍ، وإنْ لمَ يكنْ ذلكَ إلاَّ بواحدٍ منهَا: فتهجُو قريشًا بالسَّخِينَةِ، وعبدَ القَيْسِ بالتَّمرِ، وذلكَ عامٌّ في الحيَّين جميعًا . وهمَا مِنْ صالحِ الأغذيَةِ والأقْواتِ. كمَا تهجُو بأكْلِ الكلاَبِ والنَّاسِ ، وإنْ كانَ ذلكَ إنَّما كانَ منْ رجلٍ واحدٍ ، فلعلَّك إذَا أردتَ التحصيلَ تجدُه معذورًا .

قالَ الشاعرُ :

يا فَقْعَسِيُّ لِمْ أَكَلْتَهُ لِمَهْ لَوْ خَافَكَ اللهُ عليه حَرَّمَهْ
فَمَا أكلْتَ لحمَهُ ولا دَمَهْ[3]

وقالَ في ذلكَ مُساوِرُ بنُ هِنْدٍ[4] :

إذَا أَسَدِيَةٌ ولَدتْ غلامًا فبشِّرْهَا بلُؤْمٍ فِي الغلامِ
تُخَرِّسُها نساءُ بني دُبَيْرٍ بأخبثِ ما يَجِدْنَ مِنَ الطعامِ
تَرى أظفارَ أعْقَدَ مُلْقَياتٍ بَراثِنُها عَلى وَضَمِ الثُّمامِ[5]

وقالَ :

بَنِي أَسَدٍ إنْ يَمْحُلِ العامَ فَقْعَسٌ فهذَا إذًا دهرُ الكلابِ وعَامُها[6]

وقالَ الفرزدقُ :

إذَا أَسَدِيٌّ جاعَ يومًا بِبَلْدَةٍ وكان سَمينًا كَلْبُهُ فَهْوَ آكِلُهْ[7]

وتُهجَى أَسَدٌ وهُذَيْلٌ والعَنْبَرُ وباهلةُ بأكْلِ لحُومِ النَّاسِ .

قالَ الشَّاعِرُ في هُذَيْلٍ :

---

(١) السخينة : طعام من الدقيق دون العصيدة في الرقة وفوق الحساء .

(٢) ديوانه [٢٣٩] والحُبْرَة أو الجِبْرَة: صُفْرَةٌ تَعْلو الأسنان . وما بين المعقوفين : تكملة منه .

(٣) الرجز لسالم بن دارة ، انظر الحيوان [١/ ٢٦٧، ٢/ ١٥٩، ٤/ ٤١] واللسان (روح) .

(٤) مُسَاوِر بن هِنْد بن قيس بن زهير العبسي : شاعر معمّر . قال المرزباني : هو من المتقدمين في الإسلام ، هو وأبوه وجده أشراف من بني عبس ، شعراء ، فرسان . قيل : إنه ولد قبل الإسلام بنحو خمسين عامًا ، وعاش إلى أيام الحجاج وكان أعور . الأعلام[٧/ ٢١٤] .

(٥) براثنها : جمع برثن ، وهو المخلب السبعة أو الطائر الجارح . الثمام : نبت من الفصيلة النيجلية . وفروعه مزدحمة متجمعة .

(٦) الحيوان [١/ ٢٧٦] . (٧) في الحيوان [٢/ ١٢٤] دون نسبة ، ولم أجده في ديوانه .

وأنتُمْ أَكَلْتُمْ سَحْفَةَ ابنِ مُخَدَّمٍ زَمانًا فَمَا يأمَنْكُمُ أحدٌ بَعْدُ
تَدَاعَوْا لهُ مِنْ بينِ خَمْسٍ وأربَعٍ وقَدْ نَصَلَ الأظفارُ وانْسَبَأَ الجِلْدُ[1]

وقالَ حسَّانُ[2] فيهِم :

إنْ سَرَّكَ الغَدْرُ صِرْفًا لا مِزَاجَ لهُ فَأْتِ الرَّجيعَ وسَلْ عنْ دارِ لَحْيَانِ
قَوْمٌ تَوَاصَوْا بأَكْلِ الجارِ بينهُم فالشَّاةُ والكلبُ والإنسانُ سِيَّانِ[3]

وهجَا شاعرٌ بَلْعَنْبَر، وهُو يريدُ ثوبَ بنَ شَحْمَةَ . وفيه حديثٌ :

عِجلتُمُ ما صَدَّكُمْ عِلاجِي مِن العُنُوقِ ومِن النِّعاجِ
حتَّى أَكَلْتُمْ طَفْلَةً كالعَاجِ[4]

ولمَّا عُيِّرَ ثوبُ بنُ شَحْمةَ بأكلِ الفتَى [العنبريِّ] لحمَ المرأة [سكتَ] إلَى أنْ نزلَ هوَ منَ الجبلِ فَقال :

يا بنتَ عَمِّيَ ما أدراكِ ما حسبِي إذْ لاَ تَجُنُّ خبيثَ الزادِ أضلاعُ
إنِّي لذُو مِرَّةٍ تُخْشَى بوادرُهُ عندَ الصَّباحِ بِنَصْلِ السَّيفِ قرَّاعُ[5]

فهجَا ثوبَ بن شحمةَ بأكلِ لحومِ امرأةٍ. وكانَ ثوبٌ هذا أكرمَ نفسًا عندهُم مِنْ أنْ يَطْعَمَ طعامًا خبيثًا ، ولو ماتَ عندهُم جوعًا . وله قَصصٌ . ولقدْ أسرَ حاتمًا الطائيَّ ، وظلَّ عندهُ زمانًا.

وقالَ الشاعرُ يهجُو باهِلة بمثلِ ذلكَ :

إنَّ عِفَاقًا أكلتْهُ باهِلَهْ تمشَّشُوا عِظامَه وكاهِلَهْ
وأصبحتْ أمُّ عِفاقٍ ثاكِلَه[6]

وهُجِيَتْ بذلكَ أَسَدٌ جميعًا ، بسببِ رَمْلَة بنتِ فائدِ بن حبيبِ بنِ خالدِ بن نَضْلَةَ، حِين أَكَلَهَا زوجُها وأخوها أبو أرَبٍ. وقد زعَموا أنَّ ذاكَ إنَّما كانَ منهما مِنْ طريقِ الغيظِ والغَيْرة .

فقالَ ابنُ دَارَةَ[7] ينعَى ذلكَ عليهم :

---

(١) الشطر الثاني من البيت الثاني في الحيوان [٤/ ١٧٧] ، واللسان (سبأ) ونصلت أظفارُه : خرجت - انسبأ الجلْدُ : انسلخ .

(٢) هو حسان بن ثابت الأنصاري . شاعر الرسول ﷺ . دافع عن الإسلام حيث رد على الشعراء الذين هجوا رسول الله والدين الإسلامي ، وهو شاعر مخضرم عاش مائة وعشرين سنة نصفها في الجاهلية ، ونصفها في الإسلام .

(٣) ديوانه [١٥٣] والسيرة النبوية [٣/ ١٨٩] .

(٤) في المؤتلف والمختلف للآمدي (٩٣) ورد ما يلي : وعيّر بني القُلَيب رجلٌ في الإسلام فقال :

عجلتم ما صادكم علاجْ من العَتود ومن النعاجْ
• حتى أكلتم طفلةً كالعاجْ •

(٥) المؤتلف والمختلف للآمدي [ص٩٣] ، والحيوان [١/ ٢٦٩] برواية فيها إقواء . (٦) الحيوان [١/ ٢٦٩] .

(٧) سالم بن مسافع بن دارة الجشمي . شاعر مخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام .

أفِي أنْ رَوِيْتم واحتلبتم شُكَيَّكُمْ فحَزْتُم ، وفيمَ الفَقْعَسِيُّ منَ الفخرِ؟
ورَمْلةُ كانتْ زوجةً لفريقِكم وأختَ فريقٍ ، وهي مُخزِيةُ الذكْرِ
أبا أرَبٍ كيفَ القرابةُ بينكم وإخوانُكُمْ من لحمِ أكفالِها العُجْرِ[1]

وقال :

عَدِمْتِ نِساءً بعدَ رَمْلةِ فائدٍ - بَنى فَقْعَسٍ - تأتيكُمُ بأمانِ
وباتتْ عروسًا ثمَّ أصبحَ لحمُها جِلًا في قُدورِ بينكُم وجِفانِ

وقالَ البَرَاءُ بنُ رِبْعِيٍّ ، أخُو مُضَرِّسِ بنِ رِبْعِيٍّ يعيِّر صَلْتًا - وهو أخوه - فقال :

يا صَلْتُ إنَّ محلَّ بيتِكَ مُنْتنٌ فارحَلْ فإنَّ العُودَ غيرُ صَليبِ
وإذَا دعاكَ إلَى المعاقلِ فائدٌ فاذكرْ مكانَ صِدارِها المسلوبِ[2]
والآنَ فادْعُ أبا رجالٍ ، إنَّها شَنْعاءُ لاحقةٌ بأمِّ حَبِيبِ

وأبو رِجَالٍ هذا عمُّها . وقالَ في ذلكَ معروفٌ الدُّبَيْرِيُّ :

إذَا ما ضِفْتَ ليلًا فَقْعَسِيًّا فلاَ تَطْعَمْ له أبدًا طعامًا
فإنَّ اللحمَ إنسانٌ فدغْهُ وخيرُ الزادِ ما منعَ الحرَامَا[3]

وهذا البابُ يكثُر ويطولُ . وفيما ذكرنَا دليلٌ علَى ما قصدنَا إليه مِنْ تصنيفِ الحالاتِ ، فإنْ أردتَه مجموعًا فاطلبْه فِي (كتاب الشُّعُوبيّة) ، فإنَّ هناكَ مستقصًى .

(الأعرابيُّ والكلاَب)

والأعرابيُّ إذا أراد القِرَى ولم يَر نارًا نبحَ ، فيجاوبُه الكلبُ ، فيتبعُ صوتَه . ولذلكَ قالَ الشاعرُ :

ومُسْتَنْبِحٍ أهلَ الثَّرَا يطلبُ القِرَى إلينَا ومُمْساهُ منَ الأرضِ نازحُ[4]

وقالَ الآخرُ :

عَوَى حَدَسٌ والليلُ مُسْتَخلِسُ النَّدى لِمُسْتَنْبِحٍ بينَ الرُّمَيْثَةِ والحَضْرِ

ويدلُّك على أنَّه يَنْبَحُ وهُو علَى راحلتِه ليَنبحه الكلبُ، قولُ حُمَيْدٍ الأرقط :

وعاوٍ عَوَى والليلُ مُسْتَخْلِس النَّدى وقدْ زَحَفَتْ للغَوْرِ تاليةُ النَّجْمِ[5]

فمنهُم من يُبْرِزُ كلبَه ليُجيبَ، ومنهمُ منْ يمنَعُه ذلكَ. قالَ زِياد الأَعْجمُ[6]، وهُو يهجُو بَنِي

---

(١) العُجْر : الغليظ السمين . (٢) المعاقل : جمع معقلة ، وهي الدية . والصدار : ثوب يغشي الصدر .
(٣) الحيوان [١/ ٢٦٨] . (٤) الحيوان [١/ ٣٧٩] . (٥) عيون الأخبار [٣/ ٢٦٧] ، والحيوان [١/ ٣٧٩] .
(٦) زِيَاد بن سليمان - أو سُليم - الأَعْجَم ، أبو أمامة العبدي ، مولى بني عبد القيس : من شعراء الدولة الأموية . جزل الشعر، فصيح الألفاظ ، كانت في لسانه عجمة فلقب بالأعجم . ولد ونشأ في أصفهان وانتقل إلى خراسان فسكنها وطال عمره ومات فيها . الأعلام [٣/ ٥٤] .

عجْلٍ :

وتكْعَمُ كلبَ الحيِّ من خَشْيَةِ القِرَى ... وقِدْرُكَ كالعَذْراءِ مِنْ دُونِها سِتْرُ[1]

وقالَ آخرُ :

نزلنَا بِعمَّارٍ فأشْلَى كلابَهُ ... علينا فَكِدْنا بينَ بَيْتَيْهِ نُؤْكَلُ
فَقُلْتُ لأَصحابِي أُسِرُّ إليهمُ ... أذَا اليَومُ أم يَوْمُ القيامةِ أَطْولُ[2]

وقال آخرُ :

أعْدَدْتُ للضِّيفانِ كَلْبًا ضاريًا ... عِنْدي وفَضْلَ هِراوةٍ مِنْ أَرْزَنِ[3]

وقال أعْشَى بني تُغلِبٍ :

إذا حَلَّتْ معاويةُ بنُ عمرٍو ... علَى الأَطْواءِ خَنَّقَتِ الكِلابَا[4]

وأنشدَني ابنُ الأعرابيِّ ، وزعمَ أنَّه منْ قولِ المجنونِ :

ونارٍ قدْ رفعتُ لغيرِ خيرٍ ... رجاهُ لمنْ تأوَّبَني الرِّعا
تأوَّبَني طويلُ الشخصِ منهُم ... يَجُرُّ ثِفالَه[5] يرجُو العَشَا
فكانَ عشَاءَ ه عندِي خَزِيرٌ ... بتمرٍ مَهِينةٍ فيهِ النوى[6]

وقالَ في خلافِ ذلكَ حسَّانُ بن ثَابتٍ :

أَولادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أبيهمُ ... قبرِ ابنِ ماريَةَ الكريمِ المُفْضِلِ
يُغْشَوْنَ حتَّى ما تَهِرُّ كلابُهم ... لا يَسْأَلون عَنِ السَّوادِ المُقْبِلِ[7]

وقالَ المَرَّارُ الحمَّانِيُّ في كلبِه :

أَلِفَ الناسَ فما يَنْبَحُهمْ ... من أَسِيفٍ يبتغي الخيرَ وحُرّ[8]

وقال عِمْرَانُ بنُ عِصامٍ :

لعبدِ العزيزِ علَى قومِهِ ... وغيرِهِمُ مِنَنٌ غامِرَهْ
فبابُكَ أليَنُ أبوابِهمْ ... ودارُك مأهولةٌ عامِرَهْ

---

(١) عيون الأخبار [٣/ ٢٦٥] .

(٢) في الحيوان [٢/ ٢١٠] دون نسبة . ورواية الأول :

نزلنا بعبّاد ..... بابَيْنِه .....

والبيت الأول في اللسان (شلا) منسوبًا لزياد الأعجم ، وهو برواية : « أتينا أبا عمرو . . . » .

(٣) أَرْزَن : شجر صلب تتخذ منه العصي . والبيت لوبر بن معاوية الأسدي كما في حماسة البحتري [٤١٥] ، وانظر البيان والتبيين [٣/ ٧٩] وعيون الأخبار [٣/ ٢٦٥] ، والحيوان [٢/ ٢١٠] .

(٤) الصبح المنير [٢٧٠] برواية « إذا احتلّت » .

(٥) الثفال : البطيء من الإبل الذي لا ينبعث إلا كرهًا .

(٦) الخزير : مرقة ، وهي تصفية النخالة وطبخها .

(٧) ديوانه [١٢٢ ، ١٢٣] .

(٨) الحيوان [١/ ٣٨٢] .

وكلبُك آنَسُ بالمُغتَفِينَ[1] مِنَ الأمِّ بابنتِها الزائِرَهْ
وكَفُّكَ حينَ تَرَى السائِلِيـ ـنَ أندَى منَ اللَّيلةِ الماطِرهْ
فمنكَ العطاءُ ومنَّا الثَّناءُ بكلِّ مُحَبَّرةٍ سائِرَهْ

وفي أُنْسِ الكلابِ بالناسِ لطولِ الرؤيةِ لهُم شعرٌ كثيرٌ.

وقالَ الشاعرُ:

يا أمَّ عَمْرٍو أَنجِزِي الموعُودَا وازْعَيْ بذاكِ أمانةً وعهودَا
ولقدْ طرقتُ كلابَ أهلِك بالضُّحا حتَّى تركتُ عَقُورَهُنَّ رَقُودَا
يَضْرِبْنَ بالأذنَابِ منْ فَرَحٍ بنَا متوسِّداتِ أذرعًا وخدودَا[2]

وقالَ ذو الرُّمَّة[3]:

رَأَتْنِي كلابُ الحَيِّ حتَّى أَلِفْنَنِي وَمُدَّتْ نُسوجُ العنكبوتِ علَى رَحْلِي

وقالَ الآخَرُ:

باتَ الحُوَيْرِثُ والكلابُ تَشَمُّهُ وسَرَتْ بأبيضَ كالهِلالِ علَى الطَّوَى[4]

هذَا البيتُ يدخلُ في هذَا البابِ:

وقالَ الآخَرُ:

لو كنتُ أحمِلُ خَمْرًا يوم زرتُكُمُ لم يُنْكِر الكلبُ أنِّي صاحبُ الدارِ
لكنْ أتيتُ وريحُ المِسْكِ تَفْغَمُنِي والعَنْبَرُ الوَرْدُ أُذْكيهِ على النارِ
فأنكرَ الكلبُ رِيحي حينَ أبْصَرَني وكان يَعْرِفُ رِيحَ الزِّقِّ والقارِ[5]

وقالَ هلالُ بنُ خَثْعَم:

إنِّي لعَفٌّ عنْ زيارَةِ جارَتِي وإنِّي لمشْنوءٌ إليَّ اغتيابُها
إذَا غابَ عنهَا بَعْلُها لم أكنْ لهَا زَءُورًا ولم تأنَسْ إليَّ كلابُها
وما أنَا بالدَّارِي أحاديثَ بَيْتِها ولا عالمٌ في أيِّ حَوْكٍ ثيابُها[6]

وقالَ ابنُ هَرْمةَ في فرحِ الكلبِ بالضيفِ لعادةِ النَّحْرِ:

---

(١) المعتفين: الذين يطلبون معروفه. والبيت لنصيب في عيون الأخبار [٢/ ٢٠٦]، وانظر الحيوان [١/ ٣٨٢].
(٢) الحيوان [١/ ٣٨٠].
(٣) أبو الحارث غيلان بن عقبة بن مسعود العدوي. شاعر فحل بدوي يأتي الحضر، فيقيم بالكوفة والبصرة، مات سنة ١١٧هـ. عن أربعين سنة، وذلك في عصر بني أمية. والبيت في ديوانه [١/ ١٥٩].
(٤) الحيوان [١/ ٣٨١].
(٥) في البيان [٣/ ٣١١] والحيوان [١/ ٣٨٠] بدون نسبة. وقد نسب - كما أشار محقق البيان - في الحماسة [٢/ ٢٣٢] إلى مالك بين أسماء الفزاري.
(٦) في عيون الأخبار [٣/ ٢٠٥] لبشار بن بشر، وانظر الحيوان [١/ ٣٨٢].

وفَـزْحَـةٍ مِـنْ كـلابِ الـحـيِّ يـتـبـعُـهـا مَـحْـضٌ يَـزِفُّ بـهِ الـرَّاعِـي وتَـرْعِـيـبُ[1]

وقال ابنُ هَرْمةَ :

ومـسـتـنـبِـحٍ نَـبَّـهْـتُ كـلـبِـي لـصـوتِـه فـقـلـتُ لـهُ : قـمْ بـالـيـفَـاعِ فـجـاوِبِ
فـجَـاء خَـفِـيَّ الـشـخـصِ قـدْ رامَـهُ الـطَّـوَى بـضَـرْبَـةِ مـسـنُـونِ الـغِـرارَيْـن قـاضـبِ
فَـرَحَّـبْـتُ واسـتـبـشـرتُ حـيـنَ رأيـتُـهُ وتـلـكَ الَّـتِـي أَلْـقَـى بـهَـا كـلَّ ثـائِـبِ[2]

وفي مَنْعِ الكَلْبِ منَ النُّباح يقولُ الرَّاعي في الحطيئةَ :

أَلا قَـبَّـحَ الـلـهُ الـحُـطَـيْـئَـةَ إنَّـهُ عَـلَـى كـلِّ ضَـيْـفٍ ضَـافَـه فَـهْـوَ سَـالِـحُ[3]
دُفِـغْـتُ إلَـيْـهِ وَهْـوَ يَـخْـنُـقُ كَـلْـبَـهُ أَلاَ كـلُّ كَـلْـبٍ - لا أَبـالَـكَ ! نَـابِـحُ
بَـكَـيْـتَ عـلـى مَـذْقٍ خَـبـيـثٍ قَـرَيْـتَـهُ أَلاَ كـلُّ عَـبْـسِـيٍّ عَـلَـى الـزَّاد نَـائِـحُ[4]

(حَقُّ النعمة)

وقدْ قالُوا في صفَةِ أهلِ المقدُرَةِ والثَّروةِ ، إذَا كانُوا يقومُونَ بحقِّ النِّعمةِ. قالَ الراجِزُ:

إنَّ الـنَّـدَى حـيـثُ تَـرَى الـضِّـغَـاطـا[5]

وقالَ الآخَرُ :

يـزدحـمُ الـنـاسُ عَـلَـى بـابِـهِ والـشَّـرَعُ الـسَّـهْـلُ كـثـيـرُ الـزِّحـامْ[6]

وقالَ الآخَرُ :

وإذَا افـتـرقـتَ رأيـتَ بـابـكَ خـالـيًـا وتـرى الـغِـنَـى يَـهْـدِي لَـكَ الـزُّوّارَا[7]

وليسَ هذَا منَ الأوَّلِ ، إنَّما هذا مثلُ قوله :

أَلَـم تَـرَ بَـيْـتَ الـفـقـرِ يُـهْـجَـرُ أَهْـلُـه وبـيـتَ الـغِـنَـى يُـهْـدَى لـه ويُـزارُ[8]

وهَذا مثلُ قولِه :

إذَا مـا قَـلَّ مـالُـكَ كـنـتَ فـردًا وأيُّ الـنـاسِ زَوّارُ الـمُـقِـلِّ[9]

---

(١) الزَّعِيب : القطعة من السِّنام . والبيت في الحيوان [١/ ٣٨٥] .
(٢) الحيوان [١/ ٣٦٧] .
(٣) السَّالح : كل ما يخرج من البطن من فضلات .
(٤) ديوانه [٣٠٢، ٣٠٣] في الأبيات المنسوبة ، برواية : « دَفَغْتُ » بدلا من « دُفِغْتُ » . والحيوان [١/ ٣٨٥] والبيت الثالث لأعشى تغلب في الصبح المنير [٢٧٠] .
(٥) عيون الأخبار [١/ ١٦٤] ، والحيوان [٥/ ٤٤٥] ، وفي البيان [١/ ٧٧] نسبة للتميمي . والضِّغاط : المزاحمة .
(٦) عيون الأخبار [١/ ١٦٤] .
(٧) البيان والتبيين [١/ ١٧٨] ورواية الشطر الأول : يرفضُ عن بيت الفقير ضيوفُه
(٨) عيون الأخبار [١/ ٣٤٨] .
(٩) عيون الأخبار [١/ ٣٤٨] .

(رجلٌ ممدوحٌ وآخرُ مذمومٌ)

والعربُ تفضِّلَ الرجلَ الكَسُوبَ، والغِرُّ[1] الطَّلُوبَ ؛ ويَذُمُّون المقيمَ الفَشِلَ، والدَّئِرَ[2] والكَسْلان. ولذلكَ قالَ شاعرُهم، وهو يمدح رجلًا :

شَتَّى مَطَالِبُه ، بَعِيدٌ هَمُّهُ ... جَوَّابُ أوديةٍ ، بَرُودُ المَضْجَعِ

ومدحَ آخرُ نفسَهُ فقالَ :

فإنْ تأْتيانِي في الشِّتاءِ وتَلْمسَا ... مكانَ فِراشِي فَهْوَ باللَيلِ بارِدُ

وقالَ آخرُ :

إلى ملكٍ لا يَنْقُضُ النَّأْيُ عَزْمَه ... خَرُوجٍ تَرُوكٍ لِلفِراشِ المُمَهَّدِ

وقالَ الآخَرُ :

أبيضُ بَسَّامٌ بَرُودٌ مَضْجَعُهْ ... اللُّقْمَةُ الفَرْدُ مِرارًا تُشْبِعُهْ

(أصحابُ النيرانِ كرماءُ)

وهُم يمدحُونَ أصحابَ النِّيرانِ ، ويذمُّونَ أصحابَ الإخمادِ .

قالَ الشاعرُ :

لهُ نارٌ تُشَبُّ بكلِّ رِيعٍ ... إذَا الظَّلْماءُ جَلَّلَتِ اليَفَاعَا[3]

ومَا إنْ كانَ أكْثَرَهُمْ سَوَامًا ... ولكنْ كانَ أرْحَبَهُم ذِراعا[4]

وقال مُزَرِّدُ بنُ ضِرارٍ[5] :

فأبْصَرَ نارِي وَهْيَ شقراءُ أُوقِدَتْ ... بعلياءَ نَشْزٍ للعيونِ النواظِرِ[6]

جعلَهَا شقراءَ ، ليكونَ أضْوء لهَا . وكذلِكَ النارُ إذَا كانَ حطبُها يابسًا كانَ أشد لحمرةِ ناره. وإذَا كثُر دخانُه قلَّ ضوءُه .

وقالَ الآخَرُ :

ونارٍ كسَجْرِ العُودِ يَرْفَعُ ضَوْءَها ... مَعَ اللَّيلِ هَبَّاتُ الرِّياحِ الصَّوَارِدِ[7]

---

(١) الغِرّ : أي الكريم الذي لا يفطن للشر . (٢) الدَّئِر : الرجل البطيء الخامل الثؤوم .

(٣) اليفاع : ما ارتفع من الأرض .

(٤) الثاني في البيان والتبيين [٣/ ١٤٥] ، والبيتان لأبي زياد الأعرابي في الحماسة [٢/ ٥١٩] مع بعض الخلاف في الرواية .

(٥) مُزَرِّد بن ضِرَار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني : فارس شاعر جاهلي . أدرك الإسلام في كبره وأسلم . ويقال اسمه « يزيد » غلب عليه لقبه « مزرد » . كان هجّاء في الجاهلية، خبيث اللسان : حلف لا ينزل به ضيف إلا هجاه، ولا يتنكب بيته إلا هجاه . الأعلام [٧/ ٢١١، ٢١٢] .

(٦) الحيوان [٥/ ٦٣] . (٧) في الحيوان [٥/ ٦٣] ، ورواية الشطر الأول : ونارٍ كَسَجْرِ العَوْدِ يرفع ضَوْءَها

وكلَّما كانَ موضعُ النارِ أشدَّ ارتفاعًا ، كانَ صاحبُها أجودَ وأمجدَ ، لكثرةِ مَنْ يَراهَا مِنَ البُعدِ. ألاَ تَرى النابغةَ الجَعْديّ حينَ يقولُ :

مَنَعَ الغَدْرَ فَلَمْ أَهْمُمْ بِهِ ... وأَخُو الغَدْرِ إذا هَمَّ فَعَلْ
خَشْيَةُ اللهِ وأنِّي رجلٌ ... إنَّما ذِكْرِي كَنَارٍ بِقَبَلْ[1]

وقالت خَنْساءُ السَّلميّةُ[2] :

وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُداةُ بِهِ ... كأَنَّه عَلَمٌ في رأسِه نارُ[3]

وليسَ يمنعني منْ تفسير كلِّ ما يمرُّ إلاَّ اتِّكالي علَى معرفتِكَ . وليسَ هذَا الكتابُ نفعُه إلاَّ لِمَنْ رَوَى الشِّعرَ والكلامَ، وذهبَ مذاهبَ القومِ ، أو يكونُ قد شَدَا منهُ شَذْوًا حسنًا .

(دليل أيمانهم الكريمة)

ومما يدلُّ علَى كرمِ القومِ أيْمانُهم الكريمةُ ، وأقسامُهم الشريفةُ . قال مَعْدَانُ بنُ جَوَّاسٍ الكنْدِيّ[4] :

إنْ كَانَ ما بُلِّغْتَ عنّي فلامَني ... صَدِيقي وحُزَّتْ من يَدَى الأناملُ
وكَفَّنْتُ وَحْدِي مُنْذِرًا في ردائِه ... وصادَفَ حَوْطًا من أعادِيَّ قاتلُ

وقالَ الأشْتَرُ ، مالكُ بنُ الحارثِ في مثلِ ذلكَ أيضًا :

بَقِيتُ وَحْدِي وانحرفتُ عن العُلا ... ولقيتُ أضيافِي بوَجْهِ عَبُوسِ
إنْ لم أَشُنَّ علَى ابنِ حَرْبٍ غارةً ... لم تَخْلُ يومًا مِنْ نهابِ نفوسِ
خَيْلًا كأمثالِ السَّعَالِي شُذَّبًا ... تَغْدُو ببيضٍ في الكَريهَةِ شُوسِ[5]
حَمِيَ الحديدُ عَليْهِمُ فكأنَّه ... لَمَعَانُ بَرْقٍ أو شُعَاعُ شُموسِ

وقال ابن سَيْحَان[6] :

حَرامٌ كَنَّتِي مِنِّي بِسُوءٍ ... وأذْكُرُ صاحِبِي أبدًا بِذَامِ
لقد أَحْرَمْتُ وُدَّ مُطِيعٍ ... حرامَ الدُّهْنِ للرَّجُلِ الحَرامِ[7]

---

(١) الحيوان [٣/ ٥٠٤] . .

(٢) تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد الرياضية السلمية . أشهر شواعر العرب . أدركت الإسلام فاسلمت وقد استشهد لها في معركة القادسية أربعة أبناء سنة ١٦ هـ .

(٣) أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء [٨٠] .

(٤) مَعْدان بن جَوّاس بن فروه بن سلمة بن المنذر بن المضرب السّكوني ثم الكندي : شاعر مخضرم. أدرك الجاهلية والإسلام. كان نصرانيًا ، وأسلم في أيام عمر بن الخطاب . راجع ترجمته في الأعلام [٧/ ٢٦٦] .

(٥) شوس : جمع أشوس ، وهو من نظر بمؤخرة عينه تكبرًا وتغيظًا .

(٦) في البيان : « ابن شيخان » ، وفي نسخة منه : « ابن سيخان » .

(٧) للرَجُل الحرَام : أي المحرم في الحج .

وَحُـرَّهُـمُ الـذي قـد سَـتَّـروهُ ... وَمَـجْـلِـسَـهُـم بـمُـغْـتَـلِـج الـظَّـلامِ[1]
وإنْ جَـنِـفَ[2] الـزمـانُ مَـدَدْتُ حَـبْـلًا ... مـتـيـنًـا مـن حـبـالِ بـنـي هـشـام
ورِيـقَ عُـودُهُـمْ أبَـدًا رَطـيـبٌ ... إذا مـا اغْـبَـرَّ عِـيـدانُ الـلُّـثـامِ[3]

(١) بمُغْتَلِج الظلام : يقال : اعتلج الموج : ارتطم ، فكأن الظلام بَحْرٌ . ورواية الشطر الأول :

∴ وحَـزَّهُـم الـذي لـم يَـسْـتَـروه ∴

(٢) جَنَفَ : ظلم .

(٣) في البيان : « وريقٌ . . . . » ، والأبيات فيه [٤/ ٥٢] .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

والصلاة والسلام على سيدنا محمد

أفضل الخلق على الإطلاق

المراجع

١ - الأعلام .

٢ - البيان والتبيين .

٣ - الحيوان .

٤ - دواوين الشعر .

٥ - العقد الفريد .

٦ - عيون الأخبار .

٧ - كتب السنة .

٨ - معاجم اللغة . القاموس واللسان .